

Ancora Imparo



العُصْرُ

العدد ٢ مجلد ١ جماع الحِكْمَةِ يَجْذِبُنَا إِلَيْكَ اكتوبر ١٩٢٧

تأملات في الادب والحياة

الفرق بين الشرق والغرب

يقولون إن بين الشرق والغرب فارقاً بعيداً وصدعاً متنائياً . والحقيقة اننا نرى هذا الفرق ظاهراً أجل ظهور كلما قلبنا أوجه النظر في حالات اختص بها الغرب والشرق . ففي الشرق علم وفي الغرب علم . ولكن في الشرق علماً قام على الاساطير والخرافات ، وفي الغرب علم قام على الاختبار والمشاهدة . وفي الشرق فلسفة وكذلك في الغرب فلسفة . غير أن في الغرب فلسفة قامت على مذاهب وضعها الفلاسفة ، أو أساليب غيرت من نماذج الفكر . أما الشرق ففيه فلاسفة أنبتت الصلة بينهم وبين أهل زمانهم ، لأنهم نظروا في الفلسفة نظر المعتقد بأنهم يبحث في الغيبيات لا في الواقع . في حين أن الفلسفة ليست الا البحث وراء وجهة من النظر تنظم سبل الحياة . وعلى هذا فقس اذا نظرت في الموسيقى والشعر والأدب وكل ما تبقى بعد ذلك من مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية .

على أنى لا أعتقد أن السبب في ذلك راجع الى أن حجم الجمال في الغرب أكبر منه في الشرق ، أو إلى أن المادة السنجابية في نخ الاوروبى أكثر كمية أو أرقى صفة منها في نخ الافريقى أو الاسيوى كما يزعم البعض . ولسنا بأقل منهم قدرة على فهم حقائق الاشياء . ليس شىء من هذا بواقع . ولكن الواقع أن في الشرق حضارة قامت على الدين ، وفي الغرب دين قام على الحضارة

معتقد داروين الدينى

يقول داروين : « ان في النظر الى الحياة بما يحوطها من مختلف المؤثرات والقوى ، نظرة الاعتقاد بأن الله قد تفخها في بضعة صور ، أو صورة واحدة بداءة ذى بدء ، لعظمة وجلالا . وأن هذا السيار إذ ظل مدفوعاً بالجاذبية دائراً حول فلكه المرسوم ، قد هيء بقوى أنشأت ولا تزال جادة في انشاء تلك الصور غير المتناهية بما فيها من مواضع الجمال وبواعث الروعة والاعجاب . » (أصل الانواع ف ١٥) ويقول :

« ليس هذا الزعم — زعم القائلين بالخلق المستقل — الا تبديل غير ثابت بثابت ، أو على الأقل غير معروف بمعروف . فهم يشبهون صبغة الله وخلقه . وما قول الكونيين القدماء بأن صور الحيوانات المستحجرة في بعض الصخور لم تخلق الا عبثاً لمحاولة تشبيهه باطن الأرض باحياء البحار ، بأبعد من قول القائلين بالخلق المستقل في الزمان الحاضر منزلة من السقوط والاتضاع . » (أصل الانواع ف ٥) ويقول :

« انى ان كنت على تمام الاقتناع بما في المبادئ التى بثتها في هذا الكتاب — أصل الانواع — من الحق الثابت ، فانى لا أتوقع مطلقاً أن أقنع بها رجالاً من المشتغلين بالعلم الطبيعى قد شحنت أفكارهم بفكرات متكاثرة تخالف وجهة نظرى ، وظلت ثابتة في عقليتهم زماناً طويلاً . وان من الهين أن نخفى جهلنا وراء ستار من المصطلحات مثل « فكرة الخلق » و « وحدة القصد والنظام » ظانين أننا بهذا قد قمصح عن المغمضات ، في حين أننا لا نصل من هذه الطريق الا الى إعادة الاعتراف بالجهل بتعبيرات أخرى » (أصل الانواع ف ١٥) ويقول :

« هنالك مؤلفون من ذوى الشهرة وبعد الصيت مقتنعون بالرأى القائل بأن الانواع قد خلقت مستقلة . أما عقائتي فأكثر التثاماً مع المضى مع ما نعرف من القوانين التى بثها الخالق فى المادة ، والاعتقاد بأن نشوء سكان هذه الارض وانقراضهم فى الحاضر والماضى ، يرجع الى نواميس جزئية ، مثل النواميس التى تحكم فى توليد الافراد وموتهم . وانى كلما نظرت فى الاحياء نظرة القانع بأنها أعقاب متسلسلة عن بضعة عضويات عاشت قبل ترسب أول طبقة من الطبقات الكمبرية ، شعرت بأن نظرتى هذه أكثر اجلالاً ، وأبعث على التأمل ، وأدل على العظمة . » (أصل الانواع ف ١٥)

فهل يمكن أن يقول هذا القول ملحد كافر بالله ؟

قرأت فى احدى خطابات داروين الى طالب المانى على ما أذكر أنه كثير الشك فيما يمكن أن يكون وراء هذه الحياة من النعمائم التى بشرت لنا بها الاديان ، بانياً حكمه ، وان شئت فقل شكه ، على كثرة ما يرى فى هذه الحياة من ضروب التعاسة والشقاء . غير أنه على الرغم مما فى هذه المقابلة من الفوارق البعيدة فانها تدل على نزعة الرجل الاعتقادية ، فهو فى الواقع رجل مؤمن بالله ولكنه أزاء الايمان لا أدري صميم . ولو أنه زادنا فى خطابه شيئاً ولو ضئيلاً يدل على متجهه الاعتقادي لقلنا بأنه شكى صرف أزاء الاديان وان كان ثابت الاعتقاد بوجود مدير يدبر هذا الكون . ولا جرم ان هذا هو معتقد كثير من المؤمنين الذين لم يستطيعوا أن يلغوا العقل ، كما انه معتقد كثير من العقلاء الذين لم يستطيعوا أن يلغوا الايمان جملة

الشخصية

لما أدركت جالينوس الوفاة استلقى على فراشه وقال : « ان المدير الذى يدبر الجسم قد عجز عن تديره » . وأوصى افلاطون أن يكتب على قبره هذه الكلمات : « أيتها الارض ! ان كنت مخفية جسد افلاطون ، فانك لا تستطيعين الدنو من نفسه التى لا تموت »

فأى التصورات قامت فى ذهنيهما وهما على باب الابد السحيق ؟ أيدل ظاهر هذه الكلمات على حقيقة ما قام فى وجدانهما ؟ لا أظن ذلك . بل أتخيل أن ما قام

لديهما من التصورات مختلف تمام الاختلاف عن ما تدل عليه ظاهر هذه الكلمات.
فإن شهوة التأليف مثلاً قد تقوم في ذهن عدد عديد من الناس . ولكن منهم من
يطلب المال، ومنهم من يسمى وراء الشهرة، وقليل منهم من ينبغي نفع الناس . فالدافع
واحد ولكن التصورات التي تختفي وراء الدوافع النفسية مختلفة ، وفي أضعاف
هذه التصورات تكمن حقيقة الشخصيات

كلمات لطاغور الشاعر الآلهي

« هل الشفقة شيء خصت به الذوات
انمازية الضعيفة وحدها ، ولم تخص به
الآلهة ؟ »

« إن الفوثن يجب أن يبذله الإنسان
إذا ضنت به السماء »

« لا يمكن أن تمتع الخطيئة بعمر
مديد كمذا ! هل يمكن أن تكون تلك
المراسم التعبدية التي نشأت وارباها
تطاول الزمان حتى اعتقت تحت أقدام
الآلهة من الخطيئات ؟ »

« لقد بدأ الليل يرشخى ظلامه ،
وتشتد حلكته . إنه يتربع على هام
الوجود كأنه امرأة مهجورة . أما هذه
النجوم ، فدموعها استعالت ناراً . »



طاغور

« كم هي صغيرة هذه الأرض . وكم هي محصورة الجوانب . حيث تقوم
الآفاق الدائمة من حولها ، ترمقها وتبعمها أينما سارت . إن الأشجار والمنازل
والمجموع الأشياء القائمة من حولي تغشى على باصري . والضوء كقفص يحول بيني
وبين ظلام اللانهاية . والساعات تقفر وتصيح داخل حدودها كأطياف مأسورة .
ولكن ! لأي شيء يتدفق هذا الجمع في هذه الجلبة ؟ ولأي غرض ؟ إنهم ليلوحون
لي كأنهم في خوف مستمر من فقدان شيء لن تناله أيديهم . »

فازاتى للناسك — « لست أفهم ما تقول يا ابتاه . خبرنى . الا يوجد فى هذه الدنيا الفسيحة من حمى »

الناسك — « حمى ؟ الا تعرفين ان هذه الدنيا عبارة عن هوة لا قرار لها ؟ فجموع هذه الخلائق انما تخرج من ثقب العدم باحثة عن حمى يحمىها ، ومن ثم تدخل ثانية فى فوهة الفراغ اللامتناهى ، وهناك تنقد آثارها . هاهى أشباح الكذب والرياء تتخايل من حولنا رواحاً وجيئة فى سوق الاوهام والخيالات ، ولا تبيعنا من غذاء ، اللهم الا عدماً باطلا . أنها انما تحرك فينا نهمة الجوع ، ثم لا تكفينا . ابتعدى من ثم يا بنيتى ابتعدى !!! »

فازاتى للناسك — « ولكن يلوح لى أنهم سعداء جد السعادة فى هذه الدنيا يا ابتاه . الا نستطيع ان نلاحظهم من جانب الطريق . »

الناسك — « وأسفاه . أنهم لا يفقهون شيئاً . أنهم لا يرون ان هذه الدنيا موت ممتد الى اللانهاية . إنها تموت كل برهة ، ومع ذلك فانها لاتصل الى غاية . ونحن ، مخلوقات هذه الدنيا انما نعيش وتتغذى على الموت . »

السائح للناسك — « هل أجد من حمى بجانب هذا المكان ؟ »

الناسك — « ليس من حمى فى أى مكان يا بنى ، اللهم الا فى قرارة نفسك . فابحث عن هذا وتثبت به إن أردت النجاة . »

« هل تظنون أنكم بحكم الكثرة وقوتها الغاشمة تحتكمون فى الحقيقة ، وانكم سوف تفرقون العقل وقوة البرهان فى جوف تلك الهزات الاثرية التى تنبعث مع صياحكم المتعالى ؟ »

« أنى لا أسلم مطلقاً بان الحق يكون دائماً فى جانب أشد الاصوات خشونة . وإنى لا خجل من ان اعتنق معتقداً لا يقوم على غير القوة ولا بقاء له بغيرها . »

« الدين واحد فى جوهره . ولكنه يختلف فى كثرة صورته . فالماء واحد . ولكن باختلاف الشوائب التى يغشاها ، يكون الحق فيه لامم مختلفة . أما اذا كان فى صميم قلبك نبع يروى ظمأك ، ويطفى عطشك ، فلا تلومن جيرانك الذين هم مقسورون على ان يستسقوا بمجرات من الماء يأخذونها من بركهم القديمة التى غشاها من قبل أسلافهم ، مع ما يحيط بها من المروج المخضوضرة الخصبية التى غذاها الزمان ، وأشجارها التى تحمل أثمارها الأبدية ؟ »

« الحقيقة والحب هما روح الدين وجثمانه . أليس على هذا تنطوى كل المعتقدات وفيه تنحصر ماهيتها ؟ »

« لقد أسفر القمر هذه الآونة من بين السحب ، وروح السلام يرف على صفحة الماء ، كأنه يحتضن الدنيا بين ذراعيه ، تحت ضوء القمر العظيم . من هنا تذهب الطريق وتمتد الى حيث تفقد آثارها بين الاشجار الشيقة بظلالها الصامتة . وهنا تقوم البيوت . وهناك في النهاية يقوم المعبد . وشاطئ النهر يلوح عن بعد صامت موحش . فالظاهر أني هبطت كهاتل ينقض فجأة من سحب كاهل أحلام ، الى عالم الانسانية ، فكنت على جانب الطريق . »

« وأسفا يا صديقي . إنها لاسوأ اللحظات تلك التي يخدع الانسان فيها قلبه . فان الشهوة العمياء تصبح كتاب صلواته ، وتتربع الاوهام على عرش آلهته . أمن وراء هذا القمر ، الذي يستلقي نائماً بين السحب السارية انسياً ، يكون عالم الحقيقة الخالدة ؟ الصبح السافر سوف يغشانا في الغداة ، وستبدأ الجماهير الجائعة تجوب أنحاء بحر الوجود بألف من الشباك . وسوف لا يتذكرون هذا الليل الهادي باضوائه القمرية ، الا كما يتذكرون غشاء رقيقاً من الباطل ينسجه سنات النوم أو الاشباح أو الاوهام . ان تلك الشبكة السحرية التي تنسج عادة من مفاتيح خادعة تختص بها امرأة ، لهذا مثلها . وهل يمكن ان تشغل محل الحقيقة العظمى ؟ هل لعقيدة يخلقها وهمك ان تطغى عطش الهاجرة ، اذ تتلظى نيرانها ، وتشتد حرارتها ؟ »

« في أيام المحن تنحل أقدم الروابط . فالأخ يحطم أخاه . والصديق يخون الصديق . سأخرج في الظلام . وفي ظلام الليل سوف أعود لأقرع الباب . فهل سأجد صديقي واقفاً يلحظني وفي يده مصباح مضى ؟ سأحل هذا الامل بين جوانحي . »

ماليني : « اني أحلم بينما أنا مستيقظة ، بان الرياح كواسر ، وأن المياه مضطربة دوافق . الليل مشد الخلك ، والسفين قد أوثقت الى جدران المرفأ . أين الربان الذي سوف يهدي الضالين التائهين الى ماويهم ؟ اني أشعر بأنى أعرف الطريق ، وان السفين سوف يهتز بالحياة حين المسه ، ويسرع الخطو الى الامام . »

« ان دم المخلوقات ليس وقفاً على الآلهة . وانه من حق الملك ، كما أنه من حق

أحققر فلاح ، أن يحافظ على الحق ، وأن يدفع عن الاستقامة ما يهوش سبيلها «
 « الست تدري أن ترى هذه الارض إنما يتكون من عدد غير محدود من
 وقائع القتل والتفطيع ؟ ان الزمن القديم ما ينفك يخطط حوادث الحياة المنحدرة
 في جوف العدم مع مخلوقاتها بمداد من دم . يقع القتل اينما تنصور . في القفر المجذب
 وفي حظائر الانسانية ، وفي عشوش الطير ، وفي حفر الحشرات ، وفي البحر وفي
 السماء . وهنالك قتل من أجل الحياة ، وقتل من أجل التسلية وقتل للشيء أصلاً .
 ان الدنيا تقتل من غير تهدياً نوبتها »

« ان شرائع القلب ليست بذاتها شرائع الكتب المقدسة » .

جاسنيج : « الطريق ممهود أمامي . سأسلكها وبيدي جرة الصدقات ومعى
 البنت المتسولة اتخذها رفيقة . من ذا الذي يقول بان طرق هذه الدنيا ملتوية
 متعسرة ؟ على أية حال سوف تبلغ بها النهاية . النهاية التي تنتهي معها سلطة الشرائع
 والاحكام ، وتنسى معها خطيئات الحياة وآلامها ، حيث الراحة الابدية . ماذا تجدي
 عنا الكتب المقدسة والمعمون وتعاليمهم ؟ »

« لا تحدثني عن الحب . فلا أفكر دائماً في الواجب . انما الحب كالخشيش الاخضر
 وكالاشجار وكوسيقى الحياة ، كلها أشياء يلعم بها سطح الارض . انها تأتي
 وتغني كالأحلام . ولكن من وراء هذه الاشياء يكون الواجب ، كطبقات
 الصخور العانية ، أو كحمل ثقيل لا يمكن أن ترحزحه القوات »
 « ان الضعفاء في هذه الدنيا قليلو الحيلة . أما الاقوياء فقساة غلاظ
 الاكباد . ان الطمع بلا شفقة ، والجهل أعمى ، والكبرياء لا تبالى عندما تحطم
 الاضعفين تحت أقدامها » .

وبعد . فهل هذه فلسفة أم حكمة ؟ أم مزيج في كليهما ؟ كلا . ان هذا لوحيداً .
 وأى شيء يكون الوحي ان لم يكن هذا ؟

الشعراء والناثرون

أصدر الصديق هيكلك بك حكمه بان النثر في تقدم والشعر في جمود . وعلل
 الاستاذ طه حسين هذه الظاهرة بان النثرين يقرأون ويحاولون الفهم والتثبت مما

يقع بين أيديهم من أدب وعلم وحكمة ، في حين أن الشعراء لا يقرأون ولا يحاولون أن يفهموا إذا قرأوا . ولا أظن أن هذا التعليل كاف وحده . بل أعتقد بأن كل من لم يستطع أن يفكر قد أصبح في مصر شاعراً . على أن الخيال إذا لم يتقيد بالفكر أصبح وهماً باطلاً . وشعراؤنا في خيالهم لا يخرجون عن هذا على أن هنالك فئة من الشعراء لم يفت الاستاذ طه حسين أن يذكر أنها تقرأ وتفكر ، بل قل بأنها تحاول أن تغير من أساليب الشعر وقوالبه العتيقة . ولكن أولى بهذه الفئة أن لا تفكر ليصفها الناس بالشاعرية ، إذا أراد أفرادها أن يدمجوا في زمرة الشعراء .

السببية والغائية في الفلسفة

هل من فارق حقيقى بين السببية والغائية ؟ وهل الغائية قانون عقلى لا غير ؟ أم أنها سنة من سنن الطبيعة ؟ قال أحد الفلاسفة المحدثين : « ان كل ما يحدث في هذا الوجود لا بد من أن يكون له مصدر يصدر عنه ومرمى يذهب اليه » . على أن هذه النظرية لا يمكن أن تحيطها ريبه أو شك ما دامت بعيدة عن الاحتكاك بفكرة الغائية . فإذا احتكت بفكرة القصد والغاية في الطبيعة ، احاطتها الشكوك وتغلغلت فيها الريب الممضنة . فأننا نقطع مثلاً بأن كل حركة يجب أن تتجه في اتجاه ما . ولكن هل المرمى الذى ترمى اليه هذه الحركة هو بذاته نتيجة لا غير ، أم أنه غرض وغاية ؟ هذا هو السؤال . هل الاجسام فى حركتها مقسورة على الحركة بفعل غائى ، أم أنها مجذوبة بغيرها اعتباطاً ؟ وإذا سلمنا بأنها مقسورة فهل ذلك يكون بفعل جسم آخر ، أم بحكم ارادة ترمى الى قصد وغاية ؟

وقال آخر — « نرى أنه من الضرورى أن الفعل الموجد يتضمن مع فكرة السبب الدافع على الابتداء فى الحركة ، فكرة الغاية التى تتجه نحوها » . وهذه أيضاً نظرية لا يمكن نقضها . ولكن مع هذا يمكن أن ينظر فيها من عدة نواح مختلفة . فقد نتساءل . هل تحديد الاتجاه الذى تتجه فيه الحركة أمر يشمل السبب كنتيجة أو كغرض ؟ وهل هو تطبيق منطقي أم انه نتيجة إرادة حددت من

قبل كل شيء ؟ وكما تستطيع أن تقول بأن الاتجاه ينزع دائماً نحو غرض ما ،
كذلك تستطيع أن تسأل كيف يكون هذا ؟

لدينا ثلاثة أقوال — يقول ارسطوطاليس « لا تبدع الطبيعة من شيء عبثاً »
ويقول جوفروي — Geoffroy — « لكل موجود غاية » ويقول رافيسون
— Ravaison — « كل حركة تذهب في متجه ما » . غير أن هذه الأقوال
ليست بأكثر من حقائق استقرائية ، وإن شئت فقل بأنها تعميمات تؤيدها
التجربة ويصدق عليها الاختبار . على أننا إذا بحثنا بعض نواحي الطبيعة ورأينا
مشاهدات تدلنا على وجود علاقات وأواصر متينة تربط بين الوسائط والغايات ،
أو خيل إلينا على الأقل أن الواقع يلائم هذا الظاهر ، فإننا نمضي نطبق هذه
القاعدة من طريق التوسع على حقائق أقل التثاماً وهذه القاعدة ، ومن ثم نطبقها
على كل ما في الطبيعة من حقائق ، خصوصاً لما في منازعنا من حب التعميم .
وعلى هذا وضع ارسطوطاليس قاعدته : « لا تبدع الطبيعة من شيء عبثاً » .
والسبب في هذا أن ارسطوطاليس قد اكب على درس التاريخ الطبيعي ، فوقع
من طريق درسه على حقائق عديدة كان للطبيعة في كل منها قصد وغاية ، فاخذ
يطبق هذه الحالة على كل ما في الطبيعة ووضع قاعدته التعميمية اعتماداً على براهين
استمدها من ناحية واحدة من نواحي الطبيعة .

لهذا نستطيع أن نقول بأن الغائية ليست في اعتبارنا مبدأ أولياً . بل إنها
قانون طبيعي ، يثبت وجوده الاختبار والاستقراء . نقول بهذا مجازاة للعلماء
إذ يسلمون بوجود نوااميس عامة ، وهي لدى الحقيقة ليست الا مجرد ميول — لأنها
كثيراً ما تتخللها الشواذ والمستثنيات — مثل قانون الاقتصاد الطبيعي وقانون
اقتسام العمل وقانون الاتصال وقانون التبادل النسبي في الغناء العضوى . بهذا
يتضح أن هنالك قانون غائى يلوح كأنه يتضمن كل ما يسبقه من القوانين ، أو
بالأحرى ميل إلى الغائية ، وهو ميل يظهر جلياً في تراكيب العضويات ونواحي
تكوينها . وقد نقول بأن هذا القانون يمكن أن يستدل على وجوده في عالم الحياة
إذا قسنا بين ما فيها من نظام وحكمة وبين غيرها مما يعتوره النقص والانشاب
في ناحية أخرى من نواحي الطبيعة .

غير أن العلماء كثيراً ما أظهروا نفرتهم من القول أو التسليم بالاسباب الغائية

فما هو السبب في هذا ؟ السبب في هذا أن فكرة السبب الغائي قد اتخذت
حلولاً أزمان مديدة على أنها مبدأ ضروري مسلم به تسليماً إيمانياً ، وبذلك شعر

العلماء بثقل وطأته على العلم

حيث كان لها من التأثير

فيه بمثل ما كان للسببية

العامة الصرفة . فكان اذا

نظر العالم في حقيقة أي

شيء شعر بأنه مقسور على

أن يعرف سبب ذلك الشيء

كما يعرف الغرض منه والغاية

التي يرمى إليها . وما دام

انه ملزم بأن يعرف الغايات

كان لزام عليه أن يطرح ،

ولو إلى حين ، البحث وراء

الاسباب . وهذا ضرب

من الاستبداد الفكري

لا يخضع له رجل العلم ، لانه لدى الواقع يفقده حرية البحث . ولكن اذا أخذنا

الغائية ، لاعلى أنها قانون أولى من قوانين العقل ، بل على أنها مجرد نزعة من منازع

الطبيعة ، فليست أجد مانعاً يحول بين رجال العلم وبين النظر في حقيقة هذه

النزعة ، ماداموا يسمون بأن في منازع الطبيعة التي يعكفون على درسها ما هو

أعزل منها وأبعد عن متناول الفهم ؟



جان جاك روسو

الحظ في الحياة

يقول الفيلسوف السياسي جون مورلي في أول ما كتبه ترجمة عن حياة

كوندورسييه ما يأتي :

« من بين الزعماء الذين أشعلوا نار الثورة الفرنسية وغذوها بوقود الفكر

والعمل ، لم يبق سوى كوندورسيه ليحني أول ثمراتها المريرة . فان الذين أثاروا
العاصفة لم يكونوا بعد بين الاحياء ليلفح وجوههم ريحها العاصف ، ولم يبق
الا كوندورسيه ليواجه وحده العاصفة فتلقيه صريعاً »

« كان فولتير قد مات

ولحق به ديدرو وروسو

وهلنتيوس . ولكن

كوندورسيه بقي حياً ، بعد

أن أخذ بضلع في اعداد

الانسكلوبيديا ليشغل

مقعداً في الجمعية الوطنية

أثناء الثورة . حاول

كوندورسيه مع الذين

غرسوا شجرة الثورة ، ثم

شيعهم الواحد تلو الآخر

إلى مضاجعهم الاخيرة ،

وشاء القدر أن يظل حياً

ليحني ثمرات ما غرست

يداه وأيديهم »



فولتير

« قلما تجد في تاريخ العظماء اسماً أتعب من اسم كوندورسيه . وعلى الرغم

من أن الذين أحاطت بهم التعاسة وفاق بهم نكد الطالع كثيرون ، فان أكثرهم

قد جر إلى نفسه التعاسة بيده . أما كوندورسيه ، الرجل المحب للخير بطبعه ،

فان ظروف حياته وضعته موضعاً لم ينل فيه رضا فئة من النقاد الذين كتبوا في

تاريخ الثورة الفرنسية . فهو كمفكر يعد غالباً من الاقتصاديين . وكرجل

سياسي يعد من زعماء الجمعية التشريعية الأولى ، ثم من رجال الجمعية

الوطنية الثورية . »

« لم يجعل له موقفه هذا ، بين رجال الاقتصاد ورجال السياسة ، من نصير

بين النقاد الذين كتبوا في تاريخ عصره . فان الذين دافعوا عن الجمعية الثورية

قد أجمعوا على كراهية الاقتصاديين، والمؤرخين الذين دافعوا عن سياسة تيرجو واتباعه كانوا من أقسى الذين حملوا على الجمعية الثورية ، وعلى الاخص بعد أن امتد فيها نفوذ فرنيو ودانتون وروبسبير ، واستأثروا بالسلطة المطلقة فيها وفي فرنسا بالاستتباع »

« لهذا ظل اسم كوندورسيه نسياً منسياً، وقد أسدل عليه من تطرف الحزبين في التناؤد حجاباً مسدولاً . وكثيراً ما كان جهل الناس بحقيقة كوندورسيه عاملاً من أكبر العوامل في غمطه حقه في التاريخ . فان تعصب المؤرخين وتفريط أصحاب التراجم ، قد جرهم إلى مزالق وعرة لم يعرفوا وهم ينحدرون من فوقها ، ان كانوا على بينة من أمرهم حين بدؤوا يهدمون في التاريخ أسماء عظاماً ، وحين أخذوا يقيمون لهياكل البشرية الجوفاء وزناً كبيراً . »

فهل مع هذا نقول بان لاحظ في الدنيا وأن ماضى الانسان ومستقبله من صنع يده ؟ أم ان لاشتراك الظروف وحالات الحياة قانوناً كقانون تداعى الافكار في علم النفس ، هو بذاته ماندعوه بالقضاء والقدر ؟ أكاد افرض صحة هذه النظرية وأكاد أميل إلى الاكباب على بحثها والتوفر على درسها ، لولا أنها بعيدة عن متناول البحث العلمى ، وان خضعت للاستقرار ما فيلوبيوس

الشيعة في العراق

جاء في بعض الصحف أن الشيعة في العراق يحاولون أن يجعلوا مناصب الحكومة وعلى الاخص الوزارة تقسيطاً على الناس على مقتضى نحلهم الدينية . ولا نظن أن نزعة كهذه النزعة تكون ذات أثر حسن في ترقية شؤون العراق . ولست أدري متى يمكن للناس في الشرق أن يفرقوا بين المعتقد الذاتى والمسائل الموضوعية الصرفة التى تتعلق بالجهة المادية من هذا العالم ؟

فلسفة الانقلاب التركي الحديث

بحث فلسفي اجتماعي تاريخي

في الأسباب التي قام عليها الانقلاب التجديدي في تركيا وأثره في تغيير أساليب الفكر

أسباب ونتائج -- العقلية الآسيوية والعقلية الأوروبية -- أثر الأديان فيهما --
الاحساس الديني والقومي -- عصر المدنية الحديثة -- دعائم المدنية الحديثة --
وجوب القضاء على العقلية الآسيوية لتحل محلها العقلية الأوروبية -- خاتمة

من وراء الانقلابات التاريخية والثورات الاجتماعية تكمن البواعث النفسية
والانفعالات والمعتقدات وفلسفة الحياة ، التي تقصر الجماعات على أن تهدم ما هو
قائم لتشيده عليه بناء من لبنات تربط بينها الأفكار والمنازع العقلية والنفسية
التي تكون قد استحدثت على مر الأيام . وليس في التاريخ الحديث كله من
انقلاب هو أشبه بالطفرة منه بأي شيء آخر ، كالاتقلاب التركي الحديث وهو
ككل انقلاب أو فورة فجائية تكمن وراءه بواعث نفسية ومعتقدات وانفعالات
تكون لدى الواقع في مجموعها فلسفة توجه الأفكار والآراء الى وجهة في الحياة
لا يظهر منها الا نتائجها التي تتجلى في المعاهد التعليمية والنظامات الأهلية
والسياسية والاجتماعية

بهذا يؤمن كل من درس حوادث التاريخ مطبقة على علوم الاجتماع الحديثة .
فاذا كان هذا هو الواقع ، واذا اعتقدنا بأن وراء الظواهر المأموسة في الانقلاب
التركي الحديث قد كُنت فلسفة ساقطت إليه ، كان الوقوف على حقيقة هذه الفلسفة
أمر ضروري للحكم على قيمة هذا الانقلاب ومقدار ثباته وقوته ، ومقدار تأثيره
في الإدراك العام ، أو كما يدعونه اصطلاحا العقلية العامة التي تتكون من مجموع
الأغراض التي يرمى إليها زعماء الانقلاب ، ومجموع المبادئ التي يؤمنون بصحتها .
ولقد اتبع زعماء الانقلاب التركي نفس الطريقة التي اتبعها زعماء الانقلاب
الروسي البلشفي في ترويج دعوتهم بالكتابة والنشر فظهر خلال الأعوام الخمسة

الماضية مؤلفات عديدة تؤيد فلسفتهم الحديثة التي رموا بها الى اخضاع العقلية
الاسيوية أولاً ثم القضاء عليها ثانياً لتحل محله العقلية الاوروبية الحديثة . ومن
بين الكتب التي ظهرت كتاب يعده زعماء حزب التجديد في تركيا إنجيلا يوحى
إليهم بكل ما يحتاجون إليه من مبادئ الرقي والنهوض ، كما يعد الماركسيون
والبلاشفة كتاب « كارل ماركس » إنجيل النظام الشيوعي .

وضع هذا الكتاب مؤلف من الظاهر أنه أحاط كثيراً بتاريخ تطور الفكر
الانساني وعلى الأخص بتاريخ تنازع البقاء بين اللاهوت والعلم في العصور الوسطى .
ولقد طبق المبادئ التي استخلصتها العقلية الاوروبية من طريق جهادها الطويل
أزاء اللاهوت على الحالة الواقعة في الشرق أحسن تطبيق وعرف كيف يظهر آراءه
وأفكاره في قالب جلي واضح ، ونجح كل نجاح في اظهار الفرق بين العقلية
الاسيوية كما سماها ، وبين العقلية الاوروبية ، وقضى بأن العقلية الاوروبية
ارتقائية في حين أن العقلية الاسيوية رجعية جامدة . فلا مندوحة اذن من غرس
العقلية الاوروبية في نفوس الافراد والجماعات ، اذا ما أراد شعب أن يخطو نحو
الارتقاء على النهج الذي سارت فيه أم الغرب منذ أربعة قرون من الزمان .

اسم الكتاب « كتاب مصطفى
كمال » ومؤلفه « قاييل آدم » .
ومن الواضح من اسم الكتاب
أن الآراء التي بثت فيه والمبادئ
التي دافع عنها هي في حقيقتها
فلسفة المصلح الكبير التي كمنت
وراء الظواهر الانقلابية التي
قامت عليها الثورة التركية الحديثة
والانتصار في ميداني الحرب
والاجتماع . وما كان لنا أن نعلق
على هذه الآراء بشيء ما ولكن
يكفينا أن نستخلص منها لبابها ،
لنظهر القارئ على حقيقة هذا



مصطفى كمال

الانقلاب وما يكن وراءه من المبادئ الارتقائية والافكار التشيدية الكبيرة وهي في مجملها لا في مجموعها ، مما لا يستطيع عقل مثقف على النمط الحديث أن ينكر أن فيها من عناصر الحق والقوة ما سوف يجعلها دستورا عاما للعقلية التجديدية في أنحاء الشرق كله ، على أن تصفى من بعض ما فيها من نزعات التطرف والاقراط . (١) بدأ المؤلف كتابه بتلخيص عام عن مناحي الفكرة المبثوثة فيه ، وحصر الكلام في العقلية التي قامت عليها الثورة التركية الاخيرة . ومن أجل أن نكون أصدق تعبيراً عن حقيقة الآراء والمبادئ التي قامت عليها الثورة الكبرى ، نمضي في ترجمة فقرات من كل فصل نلم فيها بلباب ما فيه ، بحيث لا يفوت القارئ شيء من حقائق الكتاب وكيانه قال :

ان العقلية الاوروبية هي العقلية التي تتسق وحاجات هذه الحياة الدنيا . ونحن انما نتبع ماتوحي الينابه هذه العقلية بحكم اننا موجودون في هذه الحياة . أما العقلية الاسيوية ، فالعقلية التي تلائم الحياة الآخرة . فاذا انتقلنا الى الحياة الباقية ، فهناك نتبع ماتوحي به هذه العقلية . (ص ٣)

ان الامم الحية في العصر الحاضر تعيش فيما يلي حدودنا الغربية ، بينما يعيش في الشرق مجموع من الامم لم يعترف لهم بحق الحياة في عصر من عصور التاريخ . إن الناس في الشرق وفي الغرب يتفقون في كل الصفات العضوية ، فلكل منهم رجالان وساعدان . فمن أين حدث ذلك الفرق البين الواقع بين الناس في الغرب والشرق ؟ (ص ٤)

لا شبهة في أن الغرب وحده هو الذي يتمتع الان بأسعد حالات الحياة ، وفيه أقوى النظم الحكومية ، والحياة فيه أقرب ما استطاع الى ما يجب أن تكون عليه الحياة الانسانية . اذن يجب علينا أن ندرس فن الحياة الغربية لنعرف حقيقتها (ص ٥) . لقد استأنست أمريكا وأعترف لها بحق الحياة من طريق العلم الغربي وتحضرت اليابان بان اتبعت وسائل العقلية الغربية . وكذلك ممالك البلقان . فانها درست هذا الفن وقبلت كل مبادئه ، فاستطاعت أن ترفع عن كاهلها نير استعبادنا . فلا مرية اذن في أن هذا الفن قد جرب واختبر ، فدلّت نتيجة التجارب العديدة على صدق موحياته .

لقد ناضل الغرب ضد رجال الدين وصارعهم ، لالشيء ، الا ليفوز بتكوين

هذه العقلية ، وما زال يصارع ويناضل حتى استطاع ان يقيم للحياة فناً جديداً ، هو الآن قبلة الغرب بل ومعبوده الأعلى (ص ٦)

لم يكن لمذاهبنا القديمة سوى قاعدة منطقية واحدة ، ولم تتكون فيها سوى عقلية بعينها . وتلك القاعدة ، وهذه العقلية ، لم ينصرفا طوال العصر عن شيء واحد . هو ان يرجعوا بكل شيء استنتاجاً واستقراء الى الكتب الدينية . هذا بينما كانت العقلية الغربية تنظر في الحياة بعين انسانية ، وتنظم الحياة على مقتضى ما ترى هذه العين من حقائق الوجود . وانه لمن أشد الاشياء خطراً ان نبحث الحياة الغربية بعقلية أوروبية . لان من الجائر ان يغوينا هذا النهج ، فنقبل جزء من مجموع الحياة الغربية ، أو أجزاء نكيفها تكييفاً خاصاً أو نرفض قبول ناحية من نواحيها ، أو نكل تطبيق شيء منها الى المستقبل ، ثم نقول ان لدينا من الحياة الغربية أجزاء ونتفأ . وما من شك في ان هذا النهج كان سبباً في وقوع أكبر المصائب وأعظم الكوارث التي انتابت تركيا في الماضي . ولقد عملنا باقصى الجهد لكي نوفق بين الناحيتين ، فدلّت التجاريت عن ان التوفيق بينهما مستحيل . فان أهل الغرب انما يعتقدون بان الناس للناس (أى انسانيون) بل ان نظامهم الاولوية في الحياة تنحصر في ان يعيشوا في هذه الدنيا على أكمل وجه تتطلبه الرجولة الكاملة . أما أهل الشرق فموقنون بان الناس ملك لله ، ويحاولون دائماً ان يحققوا وجود الحياة الاخرى في هذه الحياة . ولا جرم ان هاتين النظرتين لا يمكن التوفيق بينهما (ص ٧) على أننا لم نعترف بهذه الحقائق في الماضي ولم نواجهها بما تتطلب من الشجاعة الأدبية والاستقلال في الرأي . ومن أجل هذا كله نجد أنفسنا في أشد الاحتياج لأن نصطبغ بصبغة العقلية الاوروبية الحديثة . وما من سبب لذلك التناوب الشديد الذي قام بين فريقى الامة التركية الا وجود هذه العقلية في ناحية ، حيث تقوم في ناحية أخرى العقلية الدينية العربية . وهذا أخطر ما تتعرض اليه الجمهورية التركية من الاحداث (ص ١٣)

(٢) لم تسلم الامم الاسيوية يوماً ما من الفقر والتعاسة . وليس لهذا من سبب سوى أنها اعتادت على أن تستقرى أحكامها المعاشية كلها من تشريعها الدينى المقدس . ولن تقف على طابع آخر غير هذا اذا ما قلبت تاريخ مصر والهند وفارس

واليابان القديمة والصين وطوران وبلاد العرب . فان هذه الامم لجهلها قد نسبت
لأمرائها وسلطينها ، أو لغيرهم من مقدمي الانتهازين ، صفات قدسية حيناً ،
أو سلطة إيحائية حيناً آخر . وكان من نتائج هذه العقلية أن تردت الامم الاسيوية
في وهدة التعاسة والشقاء (ص ١٤)

أما المعركة القائمة اليوم فوجهة بكل ما فيها من قوة إلى القضاء على هذه
العقلية الأسيوية . والحالة جليلة واضحة . فلست تجد في أوروبا مثقفاً أو غير
مثقف يمضي في أعماله متواكلاً على سلطة الوحي : أما في آسيا فانك لا تجد شيئاً
اللهم الا الانبياء (١) والقديسين والحكام الذين يستمدون سلطتهم من الله مباشرة .
تجد الاوامر والنواهي القدسية متغلغلة في تضاعيف العديد الأوفر من الشؤون
الخاصة الصرفة للناس ، محكمة في كل وجه من وجوه حياتهم الاجتماعية والاقتصادية
والتجارية والادارية . ولديهم أن هذه الأوامر والنواهي هي أوامر الله ونواهيها ،
وعلى هذا لا يمكن تبديلها أو تكييفها . فاذا تبدل الزمان وتكيف وجدت هذه
الاوامر والنواهي مقصورة على اللحاق بزوح العصر نشوءاً وارتقاءً ، لا تجد من
شيء اللهم الا نبياً آخر مرسلًا بتعاليم جديدة . ولا مرية في أن تتابع ظهور الانبياء
في آسيا طابع خاص بها ، لا تفاضلها فيه بقعة أخرى من بقاع الارض (ص ١٦)
على ان أعجب ما ترى في كل هذا أن كل نبي من هؤلاء الانبياء قد نصح
للناس وأهاب بهم أن ينكروا حقيقة هذه الحياة بكل ما فيها ، وأن يتلظوا حرقة
الى الحياة الآخرة . وفي هذا ينحصر كل ما يقصد بوذا من النرفانا ، وكل ما يقصد
الاسلام من الفردوس (ص ١٧) وهذه العقلية قتلت في الشرق فكرة النقد ،
كما غشت على العقول والافهام بأغشيتها الثقيلة

بيد أن هؤلاء الانبياء الذين حكموا الدول وساسوا الممالك لم يقنعوا بأن
يفرضوا على الناس أوامر الدين ونواهيها ، بل صبغواهم بأخلاقهم ، ودهنواهم بطلائهم .
فان الاسلام مثلاً ، قد صبغ المسلمين ، فضلاً عن الدين ، بصبغة الحياة العربية
الاجتماعية في كل مكان وآن . واضطر الناس على أن يقبلوا مذعنين ، لا الله والدين
وحدما ، بل حياة العرب العائلية والاجتماعية والخلق العربي والعادات العربية

(١) لا يستثنى الكاتب نبي واحد من مجموع الانبياء الذين ظهوروا في آسيا من حدود المحيط
الهادي الى أوروبا والبحر الاحمر .

بصورة كلية ، واللغة العربية بصورة جزئية . كذلك لم يفرقوا بين الدين والقومية . فان الدين والقومية ظلا في الشرق شيئاً واحداً طوال الازمان . ولهذا لا تقع في الشرق على حركة اجتماعية صبغت بالروح القومية على اطلاق القول (ص ١٨)

لقد لعن بوذا هذه الحياة . وكذلك مذاهبننا القديمة . فانها لم تعمل الا لتمهد الطريق للحياة الاخرى . ولقد أخذت أم آسيا كلها بحياة هذه التعاليم النظرية وعلى هذه القاعدة فيد اللاما أمة الصين ، والبراهمة أم الهند ، والآخوند أمة الفرس ، وأئمة الاسلام تركيا . أما العقلية التي اختفت وراء هذه التعاليم فتكون في الاعتقاد بما يأتي :

- ١ — ان الحقيقة لا يمكن معرفتها بالعقل بل بالتقاليد
- ٢ — ان الحياة لا يجب أن تحكم بمقتضى المبادئ الانسانية المستمدة من غرائز الانسان ، بل بمقتضى الشرائع المنزلة التي لا تتبدل ولا تتغير .
- ٣ — هذه الحياة فانية ، والاخرى باقية
- ٤ — نسبة كل شئ الى القضاء والقدر
- ٥ — رفض الاعتقاد بضرورة الحياة القومية ، والعكوف على الخضوع للتقاليد الدينية .

- ٦ — الخضوع الكامل للرئيس الروحي .
- وهذه القيود الحديدية والاصفاد الثقيلة لم تترك للامم الاسيوية من فرصة للخلاص . ولقد كانت هذه العقلية بمثابة تجربة حاول واضعوها أن يعرفوا ان كانت بذاتها وسيلة ناجعة للقضاء على الحياة وعلى الانسانية . ولا مزية في أنها قطعت كل علاقة كائنة بين الناس والحياة الدنيا (ص ١٥)
- ولما كانت علاقة الانسان بهذه الحياة متينة ، وأواصره بها لا تفصم ، لم يكن هناك من سبيل لكي تعيش هذه العقلية وتحيى ، الا بأن يقتل العقل الانساني ويلغى من هذا الوجود . ولولا هذا لظهر سريعاً أن الشرائع المنزلة لا تتفق وحقائق هذه الحياة . لهذا لم يتوان مشيدو العقلية الاسيوية وواضعوا قواعدها عن أن يجعلوا أساسها الاعتقاد بأن الحق في هذه الحياة تقليدي لا عقلي . ولكن نسياء ما هي التقاليد ؟ ولماذا لا يكون لدينا من الحرية ما نستطيع به أن ننظر في هذه التقاليد نظرة تحليل نحكم فيها العقل ؟ تلك التقاليد التي لم تسم بنا يوماً الى

أفق السعادة والحرية والثروة ومعرفة حقيقة الانسانية ، بل كثيرأما عضدت أسباب التعاسة والشقاء وقوت جذور شجرة الاستبداد التي تمتع بشعراتها الرئيس الروحي خلال كل الازمان . وبما أن هذه التقاليد لم توضع الا لتطبق على الانسان ، فان العقل الانساني يحس ضرورة بأنه مقصور على أن يبحث في أصلها ونشأتها وماهيتها ، ليعرف ان كانت التقاليد سموماً قاتلة ، أم أنها عقاقير لقهان السحرية !!! (ص ١٩) ان من أبلغ السفسطة أن تقول بأن العقل الانساني لا يستطيع أن يدرك الحقيقة . ان كل الذين أوصلوا اليها هذه التقاليد وبثوها في نفوسنا قد اتخذوا العقل الانساني وسيلة لبثها . وما هذه التقاليد لدى الواقع الا مجموعة من السخف لا يمكن أن تقاوم قوة النقد ساعة واحدة . ولم يكن في مستطاع أحد من ناقلي هذه التقاليد (الانبياء) أن يوحى اليها برسالة تساعدنا على اختراع آلة من الآلات أو استكشاف الكهرباء أو البواخر أو الطيارات أو التليفون اللاسلكي أو مبادئ الطب التي تساعدنا على مقاومة داء السرطان أو السل أو غيرها من الامراض . ولقد ثبت في روعنا اليوم أن ما يجب أن يوحى اليها به من العالم المجهول انما ينحصر في مثل هذه العلوم لخير الانسان والانسانية . واذا قلبت تاريخ آسيا برمتها منذ أبعد العصور الى اليوم ، لما استطعت أن تلتقي في سفرك الطويل بقديس واحد من أولئك القديسين الذين اتخذوا العلم للقداسة طريقاً . في حين أن تاريخ الدنيا يفيض بذكر الكثيرين ممن هم من هذا الطابع الخالد . أولئك الذين استكشفوا الحق وعرفوا الحقيقة ، أولئك الذين آمنوا بأن الحق عقلي لا تقليدي ، لا الذين ظلوا طوال الأعمار ينتظرون الوصول الى الحق من طريق التقاليد . ولا شبهة في أن رجال آسيا ، وهذه عقليتهم ، لا يستطيعون أن يدركوا من الحقيقة شيئاً . (ص ٢٠)

لنتسال لماذا لم يكن في مقدور المذاهب الاسلامية أن تنقذ الامبراطورية التركية ؟ والجواب أن ليس لهذا من سبب الا أن عقليتها قد عكفت على الاعتقاد بأن الحق تقليدي صرف . أما العلم اليقيني الحديث فيعتبر أن هذه العقلية سم قاتل . لأنها بعد أن تحتم في الفرد وتستقل بوجدانه وتبعده عن التفكير في أمر نفسه يكون في مستطاعك أن تجعله يعتقد بصحة أية من الاحكام الدينية فيما يتعلق بحياة الاسرة أو نظام الحكومة . وهذه العقلية هي السبب المباشر فيما ترى من

سوء النظام والعادات القبيحة كتعدد الزوجات في الحياة العائلية ، وانقسام الناس الى أحزاب وطوائف في النظام الاجتماعي في الشرق كله (ص ٢٢)
 أنظر في نظام الحكومات أو تاريخ الشعوب التي مضت عاكفة على هذه العقلية . فماذا ترى ؟ ملك مستبد بعيد عن التقيد بما توجبه شرائع الآداب ، منعوت دائماً بأنه ظل الله فوق الأرض ، وقصر منيف الظاهر مشمخر البناء ، وما هو في الحقيقة إلا دار بقاء رسمي ، تملأ جوانبه السراري والجواري . بل انهم عبارة عن مجموع من أبناء البشر تعساء بعيدين عن حقيقة الحياة (ص ٢٥)
 ان أهل الكلام من المسلمين لم يعنوا بتحرير الضمائر والافكار ، كما أن التشريع الاسلامي لم يجب أهل الاسلام بحق الحياة والعمل . بيد أن كل الامم الاسيوية قد حكمت بنظمات وتعاليم دينية ، وكل القوانين التي فرضت على هذه الامم قد استمدت من هذا النبع وحده . ولما كانت هذه القوانين بمقتضى ذلك غير متغيرة ولا متحولة ، قد قاومت في كل عصور التاريخ جولة هذه الامم نحو النشوء والارتقاء كلما حاولت أن تخطو نحوه . ان أهل الكلام قد أعاقوا العقل عن النماء والتطور ، كما أعاقوا النظم التشريعية تطور الشعوب الاجتماعية ، فنتج عن ذلك أن أصبح من أقصى المستحيلات أن يقع في آسيا انقلاب ثوري لافى الصورة العقلية ، ولا في النظام الاجتماعي . (ص ٢٦)

تحت تأثير هذه العقلية قيدت الارادة . فقتلت حيناً ، وأعطيت من الحرية قدراً ضئيلاً حيناً آخر . في حين أن الارادة الالهية ظلت طوال الاعصر القوة الحاكمة بأمورها ، وردت الارادات والاسباب جماعها الى القضاء والقدر الذي تصرفه القوة القدسية الغيبية . وهذا هو السبب في ما يدعى « بالبطالة الشرقية » تلك الصفة التي يراها في الغرب ما نسميه « بالحضارة الاوروبية » (ص ٢٦)
 ان كل ما حاول الغرب أن يصل اليه من طريق الاكباب على درس العلوم اليقينية ، حاولت الامم الاسيوية أن تبلغ إليه من طريق الاناشيد والصلوات والسحر والارواح (ص ٢٧)

جب نواحي آسيا وافتح باب أى قصر من قصورها الفخمة الضخمة ، فانك لا تجد الا قطيعاً من رجال ونساء اتخذوا الزنا حرفة في الحياة . وهذه هي بعينها حال الخليفة والامام والمشايخ . ان هؤلاء الرؤساء الذين أمروا للناس بأن يصوموا

وأن يتعبدوا ابتغاء وجه الله ، وفي الوقت ذاته صرفوا الناس عن كثير من خيرات هذه الحياة ، لم يكن لهم في حياتهم الداخلية من بغية اللهم الا الحصول على الذات البدنية من أية طريق وبأية وسيلة . وهذا التناقض الواقع بين ما يأتون من فعل ، وما يتفوهون به من كلمات ، قد دل على خبثهم وخيانتهم وفتكهم بعقول الناس ، وكان في الوقت ذاته سبباً في أن تحتم النزعات السفلية من خيانة وفجور في ارادة الحكومات . ولهذا تجد أن هذه العقلية قد مضت مستبدة بأمرها في كل طبقة من طبقات السلك الحكومي ، حتى لقد اعتبرت الخيانة ، كما اعتبر الغش والخداع ، من الامور المشروعة ، تأييداً للمآرب الذاتية وخدمة لمصالح الافراد (ص ٢٨) لم تكن الديانات في تاريخ آسيا كله الا حركات رجعية أملتها الغيرة التي تزود بها كل رسول جديد ضد الرسل الاقدمين . ان ديانات آسيا كافة واحدة في جوهرها . فان تعاليم بوذا وكونفوشيوس وبراهما وموسى وعيسى ومحمد كلها واحدة . فان اختلفت فأنها انما تختلف في التفاصيل لا في القواعد (ص ٣٠)

هذا هو الحق الذي تقع عليه كلما قلبنا تاريخ الامم الآسيوية . لقد خضعت آسيا لهذه العقلية ، ولم يكن لديها من القوة الذاتية ما تستطيع به أن ترمى عن كاهلها ثقل هذه التقاليد . اذن فلا سبيل الى الخلاص الا بلباح يستخلص من العقلية الاوروبية . وهذا هو السر فيما نرى من تقدم اليابان المدهش خلال الخمسين عاماً الفارطة ، اذا قسنا تقدمها بتقدم الصين مثلاً . ان الصين لا تزال الى اليوم واقعة تحت تأثير الذهنية الآسيوية . أما اليابان فقد نقضت عن كاهلها هذه الذهنية ، واستعاضت عنها بالذهنية الاوروبية اجمالاً وتفصيلاً . ولقد يظن البعض أنه من المستطاع أن تحوز الامم هذا التفوق الكبير من طريق الاستعانة بالعلوم العملية وحدها . غير أن هذا مستحيل . لأن المسألة مسألة « عقلية » تتناول كل بناء الفكر والعواطف والمشاعر والحياة ، تتكثف وتتراكم خلال الاجيال . ان « العقلية » كل لا يمكن تجزئته إلى أقساط وكتف . وعلى هذا وجب أن تلغى العقلية الآسيوية كلية ، لتحل محلها العقلية الاوروبية في مجموعها . ولن تجد للخلاص طريقاً آخر (ص ٣١ و ٣٢)

(٣) الاتراك أمة آسيوية . ولذا كان من الطبيعي أن يعيش الشعب التركي وأن

يعمل متأثراً بوحى العقلية الاسيوية . وإنما ينحصر غرضنا الآن في أن نبحث حياتنا وتاريخنا لنرى كيف زودتنا الثورة الاخيرة بحياة جديدة ، وأن تفهم طبيعة تلك الواجبات والالتزامات التي فرضتها علينا عقلية الثورة ، ولنحكم على مقدار ما هو مطلوب منا من تضحيات ، حتى نستطيع أن نغرس هذه العقلية في نفوس الشعب بشكل قاطع (ص ٣٣)

لقد عودنا على أن نلقن بأننا عبيد الملك ، ظل الله فوق الارض ، واننا له

ملك ومتاع . وهذا يتضمن بالضرورة

الاعتقاد بأنه ليس لدينا من شيء

يمكن أن يقاوم قوة خليفة الله الواحد

القهار ، المتربع فوق عرش الارض ،

وأنه لن يكون من نظام اجتماعي أثبت

أصولاً من اجتماعنا ، ولا حياة

دنيوية أسعد ولا أمتع من حياتنا .

بينما كانت الحقائق الملموسة توحى

لنا كل حين بأن في أنحاء مملكتنا

فقر وجوع . وأن جزء بعد جزء

من أطراف الامبراطورية كان يؤخذ

عنوة ورغماً منا نهياً واغتصاباً .



عصمت باشا

وكانت لنا حكومة هي أضف من أحط الحكومات الاورربية ، متردية في حمأة

الرشوة ، مفككة الاوصال مضطربة الاحوال ، بعيدة عن حكم الشرائع والآداب .

واننا كنا نستجدي الغرب في كل شيء نحتاج اليه . ومع كل هذا فقد كان لدينا

« ظل الله فوق الارض » وأربعون زوجة من زوجاته ، وأربعون غلاماً ممن

تعرف ولا أذكر ، لاشغل له الا أن يحمل الشعب على أن يتجرع فكرة الجنة

ونعائمها على ما وضعها رجال المذاهب القديمة . كان قد أصابنا الانحلال في الداخل

ولم يكن لدينا من سبيل لكي تفهم الحق وأن نعرف الحقيقة ، الا بأن نتصل من

طريق ما بالمعرفة الاورربية ، وأن نعترف بتفوق العقلية الغربية ، وأن نكب

على درس الاسباب التي غرست الشقاء والتعاسة في أرض من كنا نعتقد أنه

« ظل الله فوق الارض » ولما فعلنا ، بان لنا أن « ظل الله فوق الارض » لم يكن شيئاً ، اللهم الا صنم مفقود القوة والروح ، كأى صنم من أصنام بوذا في الهند . وكان لنا بمحمد أسوة . فكما أنه حطم أصنام مكة والمدينة ، كذلك نحن حطمنا أصنام الخلفاء والمذاهب القديمة والتكايا والقبور . هذا هو معنى الثورة . أما منافعها فسوف تكون عظيمة لخير الامة وسعادتها في المستقبل . (ص ٣٤)

ان الامبراطورية التركية القديمة كانت دولة دينية . لقد تبدلت هذه الامبراطورية من نظام التكية السلجوقى القديم بنظام المذاهب ، وأخضعت الناس قسراً الى المنطق التحكمى الذى اتصف به كل من ندعوه « حجة الاسلام » . وهنا تتجلى لنا صورة من أوضح الصور التى امتازت بها العقلية الاسيوية (ص ٣٥) ومع كل ذلك ، فان هذه الدروشة وان شئت فادعها الباطنية ، كانت السبب الاقوى الذى نجى الامتين التركية والفارسية من أن تستعربا بشكل حاسم . وفى هذا المجال وحده بدأ النضال بين الاسلام والقومية . أما القومية فقد تفوقت وانتصرت فى النهاية . (ص ٣٩)

بعد هذا بدأ عصر الملوك العثمانيين . وفى هذا العصر تفوقت المذاهب العربية القديمة وأساليبها كل تفوق ، حتى لقد اتبعت أساليب المذاهب البغدادية فى الاجمال والتفصيل . وهنا شبت ما ندعوه « الشريعة » التى استمدت كل أحكامها من الاوامر والنواهى القدسية المنزلة . فكان لزام أن لا تعترف هذه المذاهب بأن تغير الازمان موجب لتغير الاحكام . لقد نظرت هذه المذاهب الى القسطنطينية كما نظرت لبغداد ، ولم تفكر ساعة واحدة فى أن تدرس البيئة التى تحيط بهذه العاصمة وأن تتعرف طبيعتها وأن تكيف مبادئها بما يلائم هذه البيئة . لقد مضت المذاهب تزود الناس بعقائير استمدتها من مصادر كانت فى مكة قبل بغداد وكانت من قبل أن تكون فى مكة بين أعراب البادية . فهل يمكن أن يكون مستطاعاً أن تحتفى الشعوب بمثل هذه الشريعة التى لم تدل يوماً على أنها ملائمة لتطور الحالة الاجتماعية التى يقتضيها نماء العقل البشرى ؟ انه يتعذر أن نناقش هذه الحقيقة . ليس من الممكن أن تتطور قوة ما من القوى وتمضى مرتقية ، وهى فى الوقت ذاته بعيدة عن التأثر بمبادئ التطور وماهيته . ان مثل هذه القوة لا تنتج من شيء الا التراجع والانحدار . (ص ٤٩)

ان المبادئ التي استمدت من مكة ومن رمال البادية هي التي أعاقت تركيا عن التقدم ستة قرون طوال . لقد حكمت هذه المبادئ الشعب التركي عقليا ومدنيا واجتماعيا وعلميا وسياسيا واداريا ومدنيا . وعلى الجملة احتكمت في كل مظاهر حياته . ولقد استنفدت المدارس كل موارد تركيا المالية . ولكن ماذا كانت طبيعة الاشياء التي تدرس بين جدرانها ؟ لم يدرس بينها حرف واحد من اللغة التركية . بل كانت العربية هي الاساس ، وأكب الناس على درس مقاطع من القرآن وتفسيرات فيه قد أربت على المئات والالوف من الصفحات التي كتبها واضعوها وحكموا فيها منازعهم وشهواتهم تحكما . وكذلك درسوا الحديث . تلك الاحاديث التي وضعها وانتحلها رجال من مختلف الامم ، وفي مختلف الازمان (ص ٤٩) بيد أن هذه الاساليب التعليمية لم يكن لها من صلة بالشعب التركي ، ولا بلفته ولا بثقافته . بل لم يكن لها من صلة بالحياة ذاتها . وليس في تاريخنا من شيء هو أدعى الى الخجل أن من تفرض السراي — الباب العالي — على الشعب التركي أسلوباً تعليمياً عربياً في قوامه ومبناه . ومن الغريب أننا خضعنا لهذا النظام خضوع العبيد والاماء ستة قرون طول . (ص ٥٢)

لقد وضعت المذاهب علماً قدسيا بنته على تفسيرات خاصة فسرت بها الاحاديث وآيات القرآن . أما رجالها فقد أعلنوا الحرب والنضال على كل من حاول أن يخرج عن هذه الدائرة . وبهذا سد باب العلم وحظر على الناس ولوجه (ص ٥٥) لقد مضت المذاهب حاكمية بأمرها في السراي وفي التسكيا . ولم يكن على المتربع في السراي ، خليفة العالم « وظل الله فوق الارض » من واجب الا أن يحمي بصولته طريقة تطبيق تلك التعصبية الدينية التي تأصلت في بغداد تطبيقاً عملياً . وكان من أثر هذا أن ألغيت حرية الضمائر وقتلت طريقة النقد العقلي . وبكثير من الخطاء في التفسير والتلاعب به ، فصلت المرأة عن الحياة الاجتماعية ، وأبيح تعدد الزوجات ، فلم يصبح للمرأة في عالم الاجتماع من مكان تشغله « ص ٦٢ » كذلك فرضت المدارس على الناس أحكاماً شاذة لتقوى بذلك دعائماًها وثبتت مركزها . فقد قالت انه فجور أن تكلم امرأة أحداً من غير أهلها . بل قضت بأن ظهور شهرة واحدة من شعرها ليراها أجنبي ، سبب كاف للطلاق . في حين أنها لم تذكر أن الخلفاء الذين ولدوا بغير عقد شرعي ، هم بذاتهم نبت لغرس غير مشروع « ص ٦٤ »

(٤) طالما خيل إلينا بأن المسألة الشرقية التي قامت في دوائر أوروبا السياسية من أكبر المخاطر التي تعرضنا إليها . ولقد جر الخوف من هذه المسألة إلى جهود كثيرة بذلت في سبيل الإصلاح . على أن ضروب هذا الإصلاح لم يكن فيها من روح هذا الانقلاب أو التجديد شيء ما . بل كانت مجرد وسائل سياسية تدرع بها الحاكمون لا تقاذ الدولة . على أن جزءاً كبيراً من هذه الإصلاحات بذاتها كانت من عمل الأوروبيين لا من عملنا . « ص ٧٢ »

وفي الحق أن هذه الحركات الإصلاحية لا يمكن أن تعتبر حركات تجديد ، لأنها لم تصدر من الشعب ، مصدر كل إصلاح وتجديد « ص ٧٣ » وإذا كان قدماء الكتاب والمؤلفين لم يخرجوا عن حد النقل عن منتجات الشرق ، فإن كتاب عهد الإصلاح ، كما يسمونه ، لم يتعدوا حد النقل عن منتجات الغرب . فلم يكن في كلا العصرين نزعة إلى التجديد أو الابتكار « ص ٧٤ » والدليل على ذلك أن المصلحين لم يحاول أحد منهم أن يلمس بنقد أو تقرير حقيقة الحياة العائلية في تركيا « ص ٨٠ » لقل نقل هؤلاء مبادئ الثورة الفرنسية نقلاً حرفياً بلا تحوير أو تبديل . على أن الثورة الفرنسية لم تتناول نظام الاسرة في أوروبا بأي حدث . ذلك لأن حياة الاسرة الأوروبية كانت قد وضعت مرساتها على نظام ثابت لا يقبل التغيير . « ص ٨٠ »

لقد كانت المسيحية ديانة أسيوية ، كما كان الاسلام . غير أنها لم تستقو في عصر من العصور على شعب من الشعوب الأوروبية التي اعتنقتها فغيرت مزاجه الاجتماعي . لقد انتقلت المسيحية إلى روما في صورة فكرة ، ولكنها لم تنقل معها النظام الاجتماعي الذي خصت به البيئة اليهودية في الشرق . بل على الضد من ذلك ، فإن المسيحية قد تطورت ، وفقدت جزءاً عظيماً من ماهيتها الأصلية ، بما أثرت فيها البيئة الاجتماعية الرومانية ، مثال الحياة الأوروبية في ذلك العصر . فلو أن المسيحية كانت قد زحفت على أوروبا من أورشليم بمجيوشها وجحافلها كما زحف الاسلام على الغرب ، وأخضعت أوروبا لسلطانها وسطوتها . اذن لألغيت الحياة العائلية في أوروبا ، ولحلت محلها شرائع الاعراب من أهل البادية ، ولتبدلت أوروبا من حياتها الأولى حياة أخرى . بل ولا نقالي إذا قلنا بأن أوروبا الحديثة لم تكن لتوجد على ما هي عليه اليوم . على أية حال نقول بأن

تاريخ أوروبا قد ذهب في متجه وحده ، وبذلك أنقذت الحياة العائلية ونجت من تخريب التقاليد خلال كل العصور « ص ٨١ »

أما نحن فلم يكن لدينا شيء من روح هذا النظام العائلي . ذلك النظام الذي ولد في الامم الاخرى روح الحياة القومية « ص ٨٢ » ولقد حاول المصلحون عبثاً أن يوفقوا بين الناحيتين . فأنهم من طريق المدارس القديمة العتيقة قبضوا على زمام التعليم في المعاهد ، ومن طريق المحاكم الشرعية الدينية أخضعوا نظام الحقوق المدني ، وباتباع ما أوحى به السياسة الاسلامية الصرفة ، استطاعوا أن يلغوا العقلية التركية إلغاء كاملاً « ص ٨٣ »

لم يكن ذلك الجهد السياسي بشيء الا جهد القانط اليأس يحاول انتقاذ دولة

عملت فيها أيدي الفساد . انه لم يكن تجديد ولا اصلاح بالمعنى الصحيح « ص ٧٦ » لقد صم آذاننا اعلان الحكومة النيابية مرتين . ولم يكن لدى الذين أعلنوها من غرض الا أنهم الا أن يخضعوا الطوائف العثمانية المكونة من شعوب وعناصر متباينة ، لقوة الخلافة أو السلطنة مجتمعة . فلم يفكر المصلحون يوماً ما في أن يضعوا حداً حاسماً لتفوق السلطة الدينية ، فيحيوا بذلك الشعور القومي في قلوب الاتراك (ص ٩١)



أنور باشا زعيم حزب الاصلاح

يقوم القانون في فرنسا على فكرة

الحق ، وفي المانيا على فكرة القوة ،

وفي انجلترا على فكرة المنفعة . « ص ٩٢ » أما فكرة الحق ففكرة انسانية صرفة وليست بفكرة قومية . على أننا نعيش اليوم في جو مشبع بفكرة القومية ولا شيء غيرها . ولهذا كان من الواجب بدلاً عن أن نتبع فرنسا أن نحذو حذو المانيا أو انجلترا . إن القومية ألغت الفكرة العثمانية ، وردت فلسفة الذاتية Subjectivism الى حيث أصبحت بلا فائدة أو نتيجة ، بل محت الفكرة الفردية في الاقتصاد ، وأضحت معها الشرائع المنزلة بلا معنى يلائم الحالة الراهنة . ومع

تفوق الروح القومية أصبحت الآداب الدينية لدى الواقع بعيدة عن حكم الآداب المدنية . لهذا وجب أن نلغى الحياة العربية إلغاء تاماً ، وأن نتنكب طريق السياسة الإسلامية تنكباً ، ونتحرز منها تحرزاً (ص ١٠٧)

كان للموفقين ثلاثة أغراض تنحصر في أن تتسلم ونستجدد ونستترك . وكان هذا في حيز المستحيل عملياً . فان الاخطار التي انتابتنا من جراء القوانين التي استعدهاها من الاسلام كانت جليلة ظاهرة . واستخدام القوانين التركية التي ذاعت قبل الاسلام كانت موضع الشك . لهذا لم يصبح أمامنا الا العمل للتجديد . ولم يكن للتجديد من وسيلة الا ثورة طاحنة . « ص ١٠٩ » ولا سبيل للمستقبل الا هذه السبيل .

(٥) ماهي الاسباب الاولى التي أحدثت تلك الفروق الكائنة بين العقلية الاسيوية والعقلية الاوروبية ؟ سأحاول أن نعرف السبب من طريق تاريخي . يجب علينا أن نعي بداءة ذي بدء أنه لم يقم في أوروبا من نبي مثل بوذا أو كونفوشيوس أو موسى أو عيسى أو محمد ، ممن حملوا الى الناس أوامر ونواهي إلهية ، ثم ألزموهم الخضوع لها قسراً وجبراً « ص ١٢٣ »

تصادفنا في البدء حضارة رومانية قامت تعقيباً على الحضارة اليونانية التي حازت أرقى ما وصل اليه العقل البشري من الرقي والذكاء في التاريخ . على أن الحضارة اليونانية كانت حضارة انسانية النزعة في مجملها وفي تفاصيلها . ولقد بحث العقل اليوناني الحياة ووضع من طريق هذا البحث نظاماً للحقوق الانسانية يوافق ما تقتضى هذه الحياة من حاجات . وكذلك الفلسفة اليونانية ، فانها فلسفة صرفت كل همها لخير الانسانية . ولكنها لم تأت من طريق التنزيل والوحي على أنبياء ورسل ، كما هي الحال في الشرق . بل انك لا تعثر في بلاد اليونان على فيلسوف انتحل لنفسه صفة النبوة أو ألقى على كاهله عبء الرسالة « ص ١٢٤ »

ولقد ورثت روما البربرية هذا التراث عن اليونان . وعلى الرغم من أن اليونان كأمة قد انحلت وزالت ، فان الفلسفة اليونانية ظلت الحاكمة بأمرها في العالم الروماني والحضارة الرومانية « ص ١٢٥ » غير أن أنانية روما الاستعمارية ، قد هزت قواعد روما وخلخلتها . وفي ذلك العهد أمكن لحواري من حواربي المسيح

أن يملك منها الزمام ، وأن يقبض على أعنتها « ص ١٢٥ »
 حقيقة أنه هبط روما وفي يده كتاب ، وكان يحمل فضلاً عن ذلك نزعات
 المنطق الديني الاسيوي ليشق به لنفسه طريقاً ، ولكنه لم ينته إلا بأن بث فكرة
 مجردة لا غير . ذلك لأن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وكل نظاماتها .
 والدليل على هذا أنها ليست فكرة الحق المسيحية هي التي تسلطت على أوروبا ،
 بل فكرة الحق الرومانية . وكذلك عاش نظام الاسرة الروماني وأينع وآتى أكله .
 في حين أنه لم يقو نظام واحد من نظمات آسيا الاجتماعية على أن يلج روما باباً .
 وكذلك لم تعرف هناك عادات المسيح . بل أنه لم يتغير في روما من شيء إلا اسم
 الآله الذي كانوا يعبدون . وهذا الدين على هذه الصورة هو الذي ذاع وانتشر
 في أنحاء الامبراطورية الرومانية « ص ١٢٦ »

على هذا النمط ملكت ثانية الديانات المنزلة زمام أوروبا . أنها ديانة قامت
 كغيرها على الاوامر والنواهي الآلهية . وكانت من الناحية المنطقية على أبعد
 ما يتصور من الابهام والغموض والتعقيد . فكان هذا سبباً في أن تتسع لكثير
 من ضروب التفسير الاختياري الذي لا يتقيد فيه مفسر بنص ولا قاعدة . غير أنه
 على الرغم من كل هذا أتقذت الحضارة الرومانية أوروبا . فان كل أمة من الامم
 التي اعتنقت النصرانية لم تتخل لحظة واحدة عن عقيدتها الاصلية أزاء الحق
 الانساني ، ولم تبعد قيد أنملة عن نظاماتها العائلية وغيرها من ظواهر الحياة كما
 ورثت عن الحضارة الرومانية . لهذا قام نضال وكان صراع بين العقلية المسيحية
 القديمة ، وبين العقلية اليونانية الرومانية دار حول نظام البابوية « ص ١٢٦ »
 لقد نهجت المسيحية نهج كل الديانات الأخر . لقد علمها زعمائها على أنها
 تقاليد لا تنقض . وبذلك وقف تيار العلم الارتقائي ، وحصر التعليم بين جدران
 المدارس المسيحية . غير أنه بجانب هذا قامت الحياة الاجتماعية ونظاماتها غير
 ممسوسة بشيء من هذه الروح . والحقيقة أنه لم يكن للمسيحية من نظمات
 ومعاهد تتغلب بها على النظمات والمعاهد التي كانت في أوروبا من قبل . وهذا
 هو السبب في أن أوروبا قد استطاعت أن تنجو بنفسها عن أن تصطبغ بالصبغة
 الاسيوية . فاذا كانت المسيحية قد نقلت معها الى أوروبا شرائع كشرائع تعدد
 الزوجات أو الحجاب أو منطق يوحى بالقضاء والقدر أو أوامر منزلة تقضى على

حس الجمال وحب الطبيعة والحياة ، إذن لقضى على أم أوروبا « بالدروشة » كما قضى على بلاد فارس والهند وجزيرة العرب . وما كان يغنى عنهم أنهم أوروبيون . فان مسلمي البوسنة ومسيحييها لا بلغ مثال نصرته لنؤيده ما نقول . وما دام مسلمو البوسنة في هذا العصر قد انتحلوا حياة العرب الاجتماعية وهم بعد في قلب أوروبا ، فما الذي كان ينجي أوروبا من مثل ذلك ؟ « ص ١٢٧ »

ثم جاء عصر التجديد ، وتبعه لوثر . إن المزاج الألماني لم توافقه مراسيم روما وطقوسها فبدأت عهد الإصلاح وشق لها لوثر الطريق . قيل بأن كلمات الله لا يمكن أن تحتكرها اللاتينية . وإن كل اللغات يصح أن تكون لله . وكذلك الطقوس الدينية يجب أن تتبع أحكام العقل . فألغى لوثر كل الطقوس التي لا تتفق ومطالب الحياة ، أولاً تتجانس والعقل أو الذوق السليم . إذ كيف يتسنى لأمم متحضرة على النمط الحديث أن تلزم طقوساً ومراسم بشر بها بداءة ذى بدء لشعوب عراة حفاة دأبهم البطالة والكسل ، وأخص صفاتهم الجهل ؟ شعوب عاشت بلانظمامات تشريعية أو حكومات . لقد فهم لوثر هذه الحقيقة . ولذا سلك أقوم سبيل . « ص ١٢٨ »

ليس الإصلاح الديني — الذي قام به لوثر — إلا جزءاً من التأثير الروماني العظيم الذي برز الى الوجود من خلال الحضارة اليونانية . وتلى هذه القاعدة عينها قامت الثورة الفرنسية . فان كل زعماء الثورة في فرنسا كانوا جميعاً من المؤمنين بما أوحى به فلاسفة اليونان لعالم البشرية . فكتاباتهم ملأى بكلمات تفوه بها فلاسفة اليونان ، وحياتهم مثل لمبادئ وضعوها . انك لا تتع فيما كتبوا على استشهاد اقتطع من كتاب منزل . لانهم لم يجدوا الا في الاناجيل أو التوراة ولا في كتاب زرادشت ، حقائق كالتى وقعوا عليها في مؤلفات اليونان . لقد كمن هذا الحق الثابت في تضاعيف الفطرة الانسانية . والثورة الفرنسية إنما استكشفت هذا الحق وعكفت عليه « ص ١٢٩ »

لقد استكشفت أن الحق عقلى لا تقليدى . وأن العلم يمكن استنباطه واستقراؤه من أعمال الناس وحاجات الجماعة وكنوز الطبيعة . وأن ليس للملك ولا للبابوات من حق في الادعاء بأن لهم من قدرة على فهم الحق والعصمة من الخطأ أكثر مما لكل الناس . لقد نزع الثوره عن الدين سلطة الدنيا وتركته في حيزه الطبيعي . في صدر الجماعات ومشاعرها « ص ١٣٠ »

وما كان لشيء أن ينتج عن هذا الا القومية . لقد كانت الثورة الفرنسية لكل الانسانية ، ولكنها انتهت بالقومية . وفيها تمر اذا ما بحثت على الاسس التي قامت عليها العقلية القومية في أوروبا « ص ١٣٢ » هذه هي العقلية الاوروبية ولن تجد لها من مثيل في آسيا . على أننا قادرون على انتحالها . فاننا بشر مثلهم والواجب علينا أن نتحل هذه العقلية كما هي جملة وبلا تجزئة « ص ١٣٣ »

ولكن كيف يتيسر لنا ذلك ؟ يتيسر لنا بأن نسلك الطرق الثورية الانتقالية . ان الحاجة تدعونا لأن نلغي العقلية الاسيوية وأن نحل محلها العقلية الاوروبية . اننا تواجهنا الآن مصاعب ومشكلات كتلك التي قامت في وجه الثورة الفرنسية . لهذا وجب علينا أن نستخدم الوسائل الثورية . وليس في الدنيا من ثورة حبت أعداءها بنعمة الحرية . إنما الحرية الشخصية تكون بيقين حقاً للجميع بعد أن تضع الثورة أوزاها وتثبت أصولها . لهذا لا نستطيع أن نترك بزرة الحركات الرجعية تنمو حبتها في العصر الحاضر . والا فان الثورة لن تنجح « ص ١٣٥ » ان الحضارة الاوروبية تقوم على ثلاث أسس عظمى : الاول — حقوق الانسان — والثاني — الثقافة القومية — والثالث — الاقتصاد والمالية القومية — ولنبحث كلا من هذه الاسس على حدة :

أولاً — حقوق الانسان : تنحصر في أن كل شخص تابع لرعاية الحكومة يولد ويعيش حرّاً . وهذا هو المبدأ الجوهرى الذى تقوم عليه كل جماعة متحضرة . وهذه الحرية تطبق على كل المعاهد التي يقوم عليها النظام الاجتماعى فرديا وعائليا وحكوميا :

(١) الحرية الفردية . تقيد هذه الحرية بكل الاشياء التي لا يحب شخص أن يستعملها ضده شخص غيره . ولم يبق في أوروبا أمة واحدة لم تقبل مبدأ الحرية الفردية محددًا هذا التحديد . ومن غير الحرية الفردية وحرية الضمير وحرية الفكر والنشر لا يمكن أن تمضى أمة متحضرة في سبيل الارتقاء « ص ١٤٠ »

(٢) أما الوجه الثانى من أوجه الحرية الفردية فذو علاقة بالحياة العائلية . « ص ١٤٥ » أما العقلية الاوروبية فقد حلت هذه المشكلة أيضاً . فان الحياة العائلية في أوروبا انما تقوم على مبدأ التساوى في الحقوق . لأن الحياة لم تعط الرجل حقاً أكبر ، ولم تحرم المرأة حقاً ، مهما كان نوعه . فان الحياة مرح وسعادة .

اذن وجب أن تعطى المرأة حرية الرجل ، والرجل حرية المرأة . وليس على غير هذا الاساس تقوم الحياة العائلية الحرة . وهذه العقلية بالطبيعة ترفض الاعتراف بحق تعدد الزوجات ، وتسع بالضرورة مبدأ مساواة حقوق المرأة بحقوق الرجل في الاجتماع . « ص ١٤٦ » المرأة والرجل أحرار فرديا . وما الزواج الا اشتراك يحدث بتوحيد مصالحهما وحقوقهما بمحض الاختيار ، والطلاق عبارة عن فسخ هذه الشراكة : اذن وجب أن يكون للزوج والزوجة نفس هذه الحقوق المشتركة . والزواج موجه بكلية الى خير الجماعة ويجب أن يقوم على هذه المبادئ « ص ١٤٨ »

(٣) حرية الحكومة : بحكم وجود أكثر من فردين اثنين في هذه الحياة فرض نظام الحكم . ولهذا لزم أن تقوم الحكومة على صورة تضمن حقوق كل الناس ، ووجب أن يمثل في نظاماتها كل شخص من أشخاص الرعية . وهذه هي الديمقراطية . ينبغي للحكومة أن تمثل شرائع الافراد وأن تقوم حفيظة على مصالح الجماعة . وان مصالح الجماهير لا يجب أن تعبت بمصالح الافراد ، ولا يجب أن تعبت مصالح الافراد بمصالح الجماهير . ان مصالح الافراد والجماهير يلزم أن تسير متعاونة في سبيل الخير والصالح . وعلى هذا لا ترى حكومة أوروبية تستطيع أن تفكر في أن تعتدى على مصالح الافراد « ص ١٤٩ »

ثانياً — الثقافة القومية : اننا انما نعيش اليوم في عصر القومية ، ولم نصل بعد الى عصر « الانسانية » . ان الحضارة الاوروبية تستهدى في كل أعمالها وحركاتها بوحى القومية وحدها . إذن يجب علينا أن نسير على نهجها ونعمل عملها . لم تعترف أمة بحق أمة أخرى بعد . ولم تشفق أمة على غيرها ، ولم يهب شعب لنجدة آخر . وما الحروب الطاحنة التي قامت في أوروبا الا دليل حى على صحة ما نذهب اليه . ولقد حاول البعض أن يفسر موقف أوروبا العدائى أزاءنا بأنه راجع الى بواعث دينية . وهذا ليس بصحيح . فان الحضارة الاوروبية ليست بشعوبية مسيحية ، ولا هى بجمعية نصرانية . فان مثل هذه الاساليب التفكيرية قد زالت وانمحت من الذهنية الاوروبية . وليس أسخف من الحركات التي تقوم مناقضة لهذا المبدأ في تاريخ الدنيا الحديثة . وما جمعية الامم الا مثال محزن يؤيد صحة مذهبنا . فان العقلية الانسانية لم تقم بعد في ضمائر الشعوب . ولهذا يتعذر علينا أن نعمل مؤتمين بموحيات المنطق الانسانى . ليس لدينا الا القومية

والمنطق القومي وحدهما وهذا هو نتيجة التناحر على الحياة . وما التناحر الا أساس الحياة في كل مكان . هذا مبدأ ثابت لا مبدل له « ص ١٥٥ »

ثالثاً — الاقتصاد القومي : « ص ١٦٠ — ١٧١ » ان الاعتراف بحقوق الانسان قد مهد السبيل للحضارة الحديثة . فان الثقافة القومية قد خلقت في الناس طابعاً خاصاً . أما الاقتصاد القومي فقد حفظ ذلك الطابع وزوده بالقوة التي بها يستطيع أن يشغل في نظام هذه الدنيا أعلى مكانة . إذن فسنادة الحضارة الحديثة في الواقع هو الاقتصاد القومي . وكل الدنيا انما تعمل اليوم على هذا المبدأ . وهذا نظام لم تتمتع به كل الامم على السواء . انه نظام يكاد يكون خاصاً بأسرة الامم الاوروبية . وهو في الواقع نتاج للعقلية الاوروبية « ص ١٦١ »

ان هذا مبدأ من أقوى المبادئ التي قامت عليها الحضارة الحديثة . وهو مبدأ على أية حال مخالف تمام المخالفة للمبادئ التي قامت عليها حياة الشعوب القديمة . أما اذا كانت الشيوعية قد قامت خلال الزمان الذي ظهر فيه المسيح مثلاً لكفت حاجات الناس لعهد . ولكنها كانت تحفظ على الجماعات طابعها القبطي الاول على الدوام . فان المسيحية قد اتبعت مبدأ الانتاج على قدر الكفاية والكفاف . أما مبادئ الاقتصاد الحديث فمناقضة لهذا المبدأ تماماً . انها لا تقوم على قاعدة الانتاج على قدر الحاجة ، بل على مبدأ الاستهلاك بقدر الانتاج . والفرق بين المبدأين شاسع بعيد . انها تزيد الانتاج وفي الوقت ذاته تنوع فيه « ص ١٦٢ »

هذا هو نظام الحضارة الاوروبية . وليس من شأننا أن نبحث فيما اذا كانت حضارة بحق أم انها بربرية ووحشية . كلا . يكفيننا أن الحياة الانسانية تقوم على هذا الوجه في العصر الحاضر . والواجب على تركيا أن تندمج في هذه الاسرة المتحضرة وأن تقيم حقوقها وثقافتها واقتصادها على أسس أوروبية . ان الحياة منطق صرف ، وجهد متواصل ، ولكنها بينة الطرق ممهودة السبيل .

هذا هو ملخص الكتاب ولبه ، ترك الحكم فيه لحرية الباحثين .

اسماعيل مظهر

تاريخ النضال

بين العلم والدين

مراجعة وتلخيص عن الاستاذ دراير Draper

(٢)

أسهب المؤلف في الفصل الثالث من الكتاب في بسط النزاع الذي قام بين مدرستي الاسكندرية وروما فقال ان كلاهما كانت تبذل الجهد لتعطي المسيحية اللون المؤلف لديها وكان مجال البطولة الحربية قد ضاق عن أن يسع كل ذوى المطامع ففتحت لهم أبواب البطولة الدينية على مصراعيها خصوصاً وان الامبراطورية الرومانية كانت قد أصبحت مرسجاً يتنازعه ثلاثة من البطارقة أحدهم في روما يناضل عن الحق المكتسب والثاني في الاسكندرية يدافع عن مركز الثقافة والثالث في القسطنطينية يحاول احياء المجد الغابر

وأخذت المناقشات تدور في الشرق حول نظرية التثليث لأن الاغريق كانوا تأميل الى الشرك في حين كان الساميون أميل الى التوحيد. وشتان ما بين العقليتين. واحدة تتخيل العذراء في أبهى حلة نسائية يحيط بها الملائكة المجنحون وترفرف حول رأسها المنير أرواح الشهداء وهي حاملة بين ذراعيها الابن الاله والبشر يطفح من وجهها ، وعقلية أخرى لا تتصور الله الا جباراً قادراً مدبراً يغار من الشرك ومن التشبيه . فكان أصعب الآلهة ايزيس يلعب في هذه الثورة دوراً مهماً تحت اسم العذراء ، بزعامه سيريل Cyril . في حين كانت يقود المعارضة « نسطور » الذي كان يصرح بأن العذراء لم تكن أما الا لما هو انساني فقط من ابن الله ، وهكذا اتسع الخرق عند ما أنكر النساطرة « العذرية » للأمم كنتيجة لازمة للوضع. فنتج عن هذه « الهزطقة » نفي نسطور فئات وتشتت أتباعه ومعظمهم قصد وادي الفرات حيث غاصوا لآذانهم في كتابات أرسطو. وهكذا انتصرت اليونانية على السامية في هذه الموقعة وأصبح للقسطنطينية اليد العليا. وأما روما فلم يحن الكلام عنها بعد

(٣ - ٢ ع)

وتبع المؤلف النساطرة الى أرض الكلدان حيث أنشأوا لأنفسهم كنيسة مستقلة نبغ فيها علماء وفلاسفة نقلوا الى السريانية والفارسية شيئاً كثيراً عن اليونانية حيث كان قد تقدم الطب في حمى اليهود فسار القومان جنباً الى جنب وتغلغلا بأفكارها الى قلب البلاد العربية حيث أصبح للأولين فيها بطريقاً وعقب حدوث الجزر والمد بين دولتي الفرس والرومان أن اكتسح الاول الارض المطهرة فعمبنوا بقبر المسيح وغيره من البقع المقدسة. ومع كل هذا لم يتغير سير الشمس ولم تهتز الكائنات غضباً. وفي وسط هذه الارتباكات سطعت شعلة من بلاد العرب لم تلبث أن اكتسحت تسعة أعشار الامبراطورية الرومانية. وهنا أخذ المؤلف يقارن بين نشأة الاسلام ونشأة المسيحية ثم قال ان الثانية قد عجزت عن التغلب على الوثنية فامتزجت بها في حين ان الاسلام أشهر عليها حرباً ناجحة، وحاول المؤلف أن يثبت أن تعاليم النساطرة واليهود كانت فعالة في النهضة العربية وأثرت تأثيراً جوهرياً فيها مما لا مجال لسرده هنا إذ أن عقولنا لسوء الحظ لم تعتمد هضم النقد العالي

وسقطت الاسكندرية وقرطبة والقدس، وهي معاقل ثلاثة من معاقل المسيحية الخمسة ولم يكن سقوط القسطنطينية الا مسألة متروكة للوهم في حين كانت روما أعز من جبهة الأسد

وكان استعداد العرب لقبول الافكار النسطورية — اليهودية غريباً. لأنه بالرغم عن احراق عمر لمكتبة الاسكندرية — وكان هذا أمراً مألوفاً في ذلك الوقت ويمده فقد أحرق الاسبان ما عثروا عليه في المكسيك وفي غرناطة من نتاج العقول في وقت أكثر تأخراً — نقل المسلمون في أقل من قرن بعد وفاة محمد خير ما جادت قرائح الرومان واليونان الى العربية وقت أن كانت المسيحية تتخبط في ظلام التعصب والجهل. وقد نشط اليهود والنساطرة الى النقل للسريانية ثم الى العربية، أو الى الأخيرة مباشرة

وأثرت التعاليم الجديدة في فهم العرب لمعنى القضاء والقدر في حين كان من المستحيل عليها افهام المسيحية أن الرجاءات والصلوات والتعلق بالتقديسين وغيرهم لا تؤثر في مجرى الاحوال. وكانت المسيحية ترى كل حادث جديد عبارة عن مفاجأة لا أكثر، بينما تعلم المسلمون مبادئ المسببات والنتائج

ومع ان اعتقاد المسلمين كان في الاصل ان الارض منبسطة -- وهو ما كان يعتقد جميع الناس -- لم يأت عهد المأمون حتى أثبتوا كرويتها وشرعوا في مسح قطرها بالرغم من تكفير تقي الدين للخليفة من أجل ذلك

وكان القرآن في البدء عقبة أمام العلوم والآداب لما كان يدور في خلد القوم من أنه منزل يحوى كلمة الفصل . ولكن ثارت الثورة العملية ضد هذا الرأى في عهد علي وأنتجت في عهد معاوية الذى جعل الحكومة وراثية ثم نقل كرسىها الى دمشق وكان النضال شديداً بين معاقل الثقافة الاسلامية . فان العباسيين فى آسيا والفاطميين فى مصر والامويين فى اسبانيا كانوا يتسابقون لنشر العلم وتشجيعه .

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن نقل المسلمين للعلم لم يكن عن طريق يوناني أو روماني بل عن الاسكندرية حيث نشأت الافكار المبنية على التجارب والملاحظة لاعلى الرجم بالغيب والفلسفة . وهذا يتوسع المؤلف فى ذكر العلوم التى كان المسلمون سبباً فى تقدمها والمدارس التى أنشئوها وما اكتشفوه فى الفلك والكيمياء بوجه خاص وأما فى الفصل الخامس فبحث المؤلف فى ماهية الروح حسب ما تصوره أهل ذلك العصر وأتى برأى وثني الاغريق والرومان من أنها تشابه الجسد الذى تقطنه وتتشكل بشكله وهذا ما سلم بصحته المسيحيون دون جدل كما وانهم أخذوا عن الوثنية فكرة عما تكون عليه الروح بعد مفارقتها للجسد ثم ذكر انه وجد فى الفيدا منذ الازمنة القديمة « يوجد اله واحد هو الروح العليا ومنها نشأت أرواح الناس » وهكذا قالت شريعة مانى أن الروح بلا شكل وأن العالم المنظور على جماله ، ليس الا ظلاً للروح غير المرئية ، وقد نقل أرسطو هذا الرأى عن الشرق لأول مرة وعنه تناقله فلاسفة الازمان السالفة فلما احتك العرب بمدرسة الاسكندرية هضموا هذا الرأى خصوصاً بعد ما اصطبغ بالصبغة اليهودية واليهود هم الذين نقل عنهم العرب طريقة التفكير ونظام الحكم -- وأخذت أوروبا أخيراً هذا الرأى عن ابن رشد الذى اقتحمت أفكاره أوروبا عن طريق أسبانيا وطريق ايطاليا وبنيت على فلسفته « الآراء الهرطقية »

ولم نجد للوقت الحاضر سبباً ثالثاً لوجود العالم يصح اضافته إلى (١) ان خالق العالم كائن مستقل لا يفنى و(٢) أن الذى أوجد العالم ذكاء سيال وروح انبثقت منه جميع الارواح واليه مرجعها . وتسمى الاولى فكرة الخلق والثانية فكرة

النشوء وهى التى قام العرب بنشرها عن طريق أسبانيا ويرجع المؤلف أدراجه فيتكم عن روما بعد أن تركها مؤقتاً فيقول ان طائفة الفرنسيسكان فيها سامت بالفكرة الثانية ولكن طائفة الدومينيكان ناهضتها بحجة أن التسليم بها يعنى الموافقة على اجتماع روجى القديس بطرس ويهودا فى أصل واحد .

ولم يكن باوروبا حتى عهد البابا انوسنت الرابع Innocent عام ١٢٤٣ محاكم غير محاكم البطارقة فلما انتصر الاسبان على العرب والغوا المحاكم بعد أن استبدلوها بمحاكم التفتيش احتج البطارقة على الافتئات الذى وقع على سلطتهم ولكن ساعد الملوك البابا على توطيد النظام الجديد لما رأوه فيه من النفع لتنفيذ أغراضهم . وهكذا أصبح الرهبان قضاة لا مرد لكلمتهم .

وكان من الطبيعى أن يتقارب العرب واليهود لما أدخله الاخرون فى أذهان الاولين بانهما ارومتان من أصل واحد هو ابراهيم . وفعلاً قد ربح اليهود جاهاً وثروة فى ظل الحكم الاسلامى . فلما تحكمت الرهينة فى ناصية العدل شتت شمل اليهود مع العرب طمعا فى أموالهم وحظا من نفوذهم وأخذوا يثيرون العامة على اليهود بدعوى انهم يضحون أولاد النصرارى فى معابدهم .

وكانت العلوم فى عصر أوروبا المظلم عبارة عن مجموعة من الخرافات . فالارض مسطحة ترتكز عليها السماء ويفرق الماء بينهما وتتحرك الاجرام السماوية من الشرق إلى الغرب حول الارض أكبر الاجرام حجماً ولم تخلق الكائنات إلا من أجل الانسان فالارض محور الوجود والانسان بيت القصيد فعلى هذه التخيلات بنوا نظرياتهم الفلسفية فمثلاً ادعوا أن فوق السماء عالم من الضوء مملوء بالسعادة يتربع فيه الاله وحوله الملائكة الابرار وأما تحت الارض فموقع مملكة الظلام والبؤس حيث مشوى الاشرار ويتسبب الليل من اختفاء الشمس خلف الطود العظيم الواقع فى شمال الارض .

وكانت الوثنية قد اكتشفت فساد بعض هذه الخزعبلات ولكن لم تجد المسيحية لديها وقتاً لمتابعة البحث لانها كانت مهتمة بتتبع ابحاث الطبيعتين . والمشيعتين من جهة كما كانت جميعاتها الدينية تناضل بعضها البعض من أجل السلطة من جهة أخرى . ولذلك كان المسيحيون يصدرن أحكامهم العامة —

ان صح هذا التعبير — على مارأوه بالعين المجردة . فكلما هم شخص باجراء مباحث جدية أحالوه إلى أقوال القديسين وهكذا قضت خمسة عشر قرناً دون أن ينبغ فيها فلكى واحد . فى حين ان المسلمين شجعوا البحث العلمى بعد موت النبى . بست سنين بعد أن أخذوا الاسكندرية ، ونقلوا فى أقل من قرن جميع علوم اليونان وعرفوا أبعاد الارض ورتبوا السيارات ولا يزال أغلبها يحمل أسماء عربية حتى الآن .

وما زالت أوروبا تضرب فى غياهب الجهل إلى أن قام ثلاثة من البحارة كولومبوس ودى غاما وماجلان باكتشافات اثبتت فيما بعد دوران الارض . ولكنهم لم يفعلوا ذلك خدمة للعلم ، بل لاجل البحث عن طرق تجارية . وهناك ما يرجح أن كولومبوس كان واقفاً على بعض كتابات ابن رشد ومن المحقق انه مات وهو يعتقد تماماً انه عثر على طريق ثانية توصل إلى الشرق

وعقب ذلك بضع محاولات للبحث العلمى ولكنها كانت دائماً تصادم بشدة . ولما بسط غاليلو نظريته اتهموه بالزندقة والاحاد والكفر فقال المسكين رغبة منه فى دفع الشر عن نفسه ان الكتب المقدسة لم تنزل لنشر المعارف بل من أجل نشر الاخلاق الفاضلة فكان قوله هذا سبباً فى تقديمه الى ديوان التفتيش بتهمة ادعائه أن الارض تدور من حول الشمس خلافا لما ذكر فى الكتب فرمى فى السجن وعومل معاملة وحشية ولم يطلق سراحه حتى أخذوا عليه الموائيق بان لا ينشر أفكاره

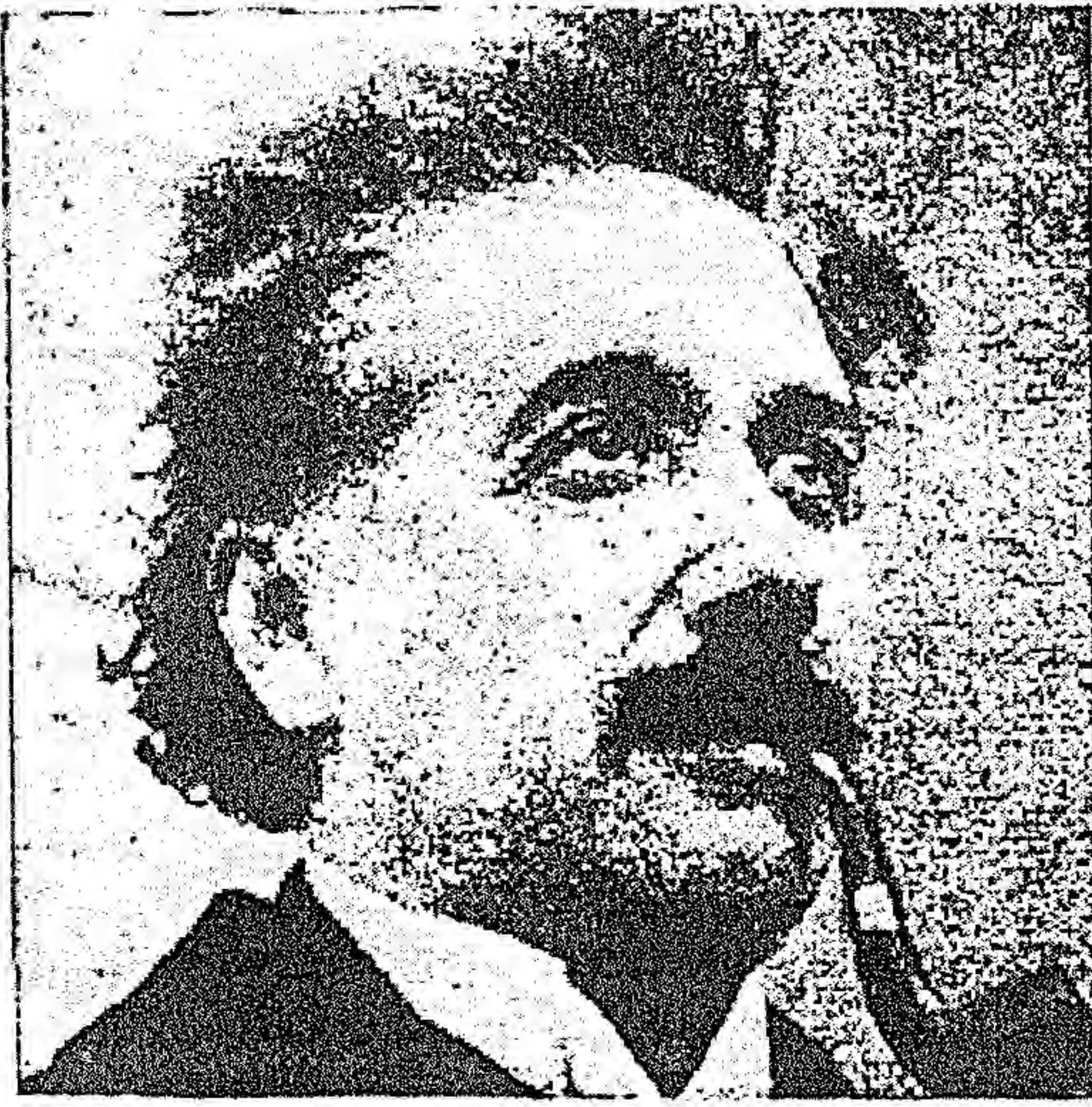
ولكن بعد اثنى عشر سنة لم يستطع صبراً فطبع أراءه عام ١٦٣٢ فكان جزاءه أن أجبرته محكمة التفتيش أن يركع ويلعن نظرية دوران الارض ويده على الكتاب المقدس ففعل ومات بعد أن ذاق أشد أنواع العذاب لمدة عشرة أعوام وحينئذ رفضوا دفنه بين من قضوا من المؤمنين

فلسفة النسبية

أو النسبية وما بعد الطبيعة (١)

كثيراً ما يخطئ الباحثون والفلاسفة في تطبيق اصطلاح ما بعد الطبيعة — الغيبيات — على نظرية النسبية الحديثة . فلقد مضى كثير من العلماء يعتقدون بأن مباحث الغيبيات على تبين نواحيها وتشعب مناحيها هي العقبة الكؤود التي تصد العلوم الطبيعية عن التقدم والارتقاء . أنزلها في هذه المنزلة فئة من الباحثين ظهوروا في خلال ذلك العصر الذي تقدمت فيه العلوم الاثباتية اليقينية لتأخذ مكانتها الخلية بها في سلم المعارف الانسانية . ولقد ماشى الباحثون أوغست كونت في طريقه هذه ، حتى لقد اعتقدوا بأن مباحث الغيبيات هي الباعث على ذبوع الجمود الفلسفي Philosophical Obscurantism ولا تزال هذه الآراء عالقة بهذه المباحث الفلسفية منذ ذلك العهد . غير أن مباحث العصور الاخيرة كانت كفيلاً بأن تبرز فئة من العلماء يقولون اليوم بأن مباحث الغيبيات الفلسفية يجب أن تسد فراغاً ما في ترتيب العلوم الانسانية . قيل إن تعريف أرسطر طاليس لما بعد الطبيعة — الغيبيات — بأنها « البحث في الاشياء التي تقع وراء المحسوس » ، لا يسوق بنا الا الى جهة مظلمة لم نتعرف بعد شيئاً من طبيعتها ، والاحتمال الغالب أننا لن نبلغ منها بشيء من العلم الصحيح . وكثيراً ما تطالع الباحثون الى تلك الجهة المهمة الغامضة من الفلسفة ، ولكنهم لم يدركوا من ماهية ما تناولته بحائهم شيئاً ، لا بالحس النظرى ولا بالاختبار العملى . وعلى ذلك تكون مباحث ما بعد الطبيعة في النفس وأصل الكون وعلة العلل وما الى ذلك ، تصورات مجردة ، وليست بموضوعات يمكن أن نبلغ منها بمعرفة بالمعنى العلمى المحض . أو أنها — في اعتبارهم على الأقل — موضوعات لا تتناولها طرائق العلم الاختبارى . غير أن التسليم بصحة مثل هذه المزاعم لا محالة يؤدي بنا الى اطراح كل التقاليد العلمية التي ورثناها عن الاقدمين حتى الآن . ذلك لأن العلوم الحديثة على ما هي عليه

الآن نتاج لتحدى الطريقة الاختبارية في البحث وتطور وجوه النظر فيها على مدى الازمان . في حين أن هذه الطريقة الاختبارية ذاتها ، وهي الأصل الذي تقوم عليه العلوم الحديثة ، ليست مسألة واضحة بذاتها كما أنها ليست بمسألة نظرية عقلية تقوم في النفس بطبيعتها ومهياتها الخاصة بها . ذلك لأنها تحتاج الى فكرة مجردة ، وادراك العقول لها لا يمكن أن يتم إلا بالرجوع الى مبادئ المجردات الغيبية أما التفريق بين طريقة العلم الاختباري ، وبين المبادئ التي تقوم عليها الغيبيات ، ووصفك الاولى بأنها مبعث العلم ومستكنه ، ووصفك الثانية بأنها منشأ الجهالات والتطوح وراء ما لا يمكن معرفته ، مسألة لا نستطيع على أى وجه من وجوه الرأى نقلها ، أن نتوخى للنظر فيها سبيلا يبعدها عن التناقض والابس بل اننا لا نخطئ اذا قلنا بأنها مضادة لبديهية العقل .



الشتين

أما السبب الذي أدى الى القول بأن مباحث الغيبيات أشياء بعيدة عن العلم الصحيح أو أنها خطرات وهم وتصورات خيالية ، فذلك المنزلة التي تنزلها علوم الطبيعة من الرياضيات الصرفة . في حين أن الرياضيات لا تلجأ الى الطريقة الاختبارية مطلقاً ومع هذا فإنها تقع في ترتيب العلوم وتبويبها وعلاقة بعضها ببعض موقعاً .

تقوم فيه بذاتها مستقلة عن غيرها ، فتعتبر دعامة وأساساً يبنى عليه لتشييد العلوم العليا في المعارف الانسانية . والرياضيات فوق ذلك علوم جامدة تتناول الكميات فقط . وبذلك تفقد الصفة الجوهرية التي تتطلبها العلم الاختباري . تفقد صفة الاشتقاق . وهذه فجوة لا يسد فراغها الا الغيبيات .

في عصر الفلسفة الحديثة ، منذ ديكارت حتى اليوم ، زاد على العقول ضغط المسألة العامة . وما تقصد بذلك الا أننا اذا أردنا أن نحصل على الحقائق الثابتة ، فزمننا أن نرجع الى العلوم الطبيعية نستدر وحياً من طريق الاختبار . ولقد حلت الفوائد التي أحس بها الناس من مزاولة العلم الطبيعي وحقائقه الملموسة ، محل اللذة

التي كان يتذوقها الناس في فلسفة القرون الوسطى . تلك التي حصرت همها وبذلت كل جهدها في البحث في أصل النفس الانسانية ومنقلبها خاصة ، وفي علاقة الانسان بالله عامة . وانا اذا قلنا اليوم بأن الفلسفة الحديثة تشارك الفلسفة اليونانية القديمة في أمر ، فليس ذلك في النتائج العملية . لأن الفلاسفة اليونانيين ، ان كانوا في الواقع رياضيين قبل كل شيء ، فلم يكن لهم من فكرة في الاسلوب العلمي كما نطبقه اليوم . وكذلك نشك فيما كان يمكن أن يكون من تقبلهم لهذه الطريقة على قواعد عقلية عملية صرفة ، حتى اذا كانوا عرفوها .

ان مبدأ النسبية نتاج مباشر لتطبيق الطريقة الاختبارية . والواقع أن هذه الطريقة لا تستمد قوتها وتأثيرها في العقول الا من طريق ثقتنا التامة بما ندرك من حقائق الغيبيات ، التي هي أساس هذه الطريقة والمرجع الوحيد الذي يعود اليه السبب في وضعها . ولقد أحاطت الطريقة الاختبارية بالعقل الحديث احاطة تامة . فكأنها شيء يملك من العقول ما تملك الصفات الوراثية الفطرية الثابتة منها فاذا اثبت الاختبار أن مقداراً من السرعة يكون ثابتاً تحت تأثير حالات يخيل اليها معها أنها متغيرة غير ثابتة ، أو اذا دلت التجارب على أن الحركة المستمدة من منبع من الضوء لم تؤثر أثرها المنتظر في سرعة انتشاره ، فهناك نضطر الى تعديل ادراكنا للصورة التي تتكيف بها الحقيقة عندنا بما يوافق نتيجة التجربة أو الاختبار .

مضى الناس يعتقدون بأن المكان والزمان شيئان ثابتان نرجع اليهما في الحكم والقياس . فلما تقضت نتيجة الاختبار هذه الفكرة ، اذ ثبت أن المكان والزمان ليسا الا ظلالاً متنقلة ماضية في التغير والاختلاف ، رجعنا الى القول بأنه لا يبقى من شيء ثابت الا نسبة سرعة الاجرام ، لانها وحدها تبقى ثابتة خلال تغير الحالات العامة . أي اننا عدلنا ادراكنا للصورة التي تحيزت بها الحقيقة في عقليتنا بما يوافق نتائج التجارب .

والذين يعتقدون بان النسبية مبدأ رياضي صرف ، وينفون علاقتها بالغيبيات - ما بعد الطبيعة - يكرهون أو هم يستنكرون تدخل الغيب في بلاغة معادلاتها الجبرية ، ويدركون تلك النظرية ادراكاً من يعتقد بانها مسألة أسلوبية صرفة لا تختص بشيء الا بالقياسات الكمية الجامدة ، وانها بذلك تستعيز بطائفة من

المعادلات الاصطلاحية على مافيها من الصعوبة أو الغموض الشديد ، عن أشياء آخر أسهل منالا وأقرب استيعابا ، فتقصيها عن طريق البحث حبا في الضبط المطلق كما يقولون ، واستماتة في احكام اطراف البحث والاستقصاء . ولقد يلوح الى أن الذين يعتقدون بهذا الاعتقاد لا يقدرّون هذه النظرية قدرها ، ولا ينزلونها من الخطر منزلتها الحقيقية . فأن هذه النظرية لا يمكن أن تفهم تمام الفهم الا اذا توبع بحثها من طريق علاقتها التاريخية بما دعم عطاء الفلاسفة وأقاموا من أركان الغيبيات

لقد ظلت المذاهب الفلسفية منذ عهد ديكارت دائرة حول نقطتين اثنتين . حول المادة وما أدرك العقل الانساني منها ، وحول العلة ونظرية النسبية بناحيتهما ، ناحيتها الخاصة ، وناحيتهما العامة ، لا يخرج النظر فيها عن هاتين المسألتين . المادة والعلة . أما الناحية الاولى من النسبية ، بما تسوق اليه من انكار فرض الأثير ، فهي تعتبر بمثابة تعديل فيما كنا ندرك من المادة . والناحية الثانية بما في نظريتها الحديثة في الجاذبية من تأثير التعادل في قوة جاذبة مفروضة ، قد عدلت فيما كنا ندرك من العلة

ولقد جرت الفكرة في المادة والعلة الى التناحر بين مبدأين ظلا يتجاذبان العقل الانساني ليتغلب أحدهما على الآخر في العصور الحديثة . أخذ المبدأ الاول شكله وكيانه في الجهة الموضوعية Objective التي يمثلها الكون لعقل الباحث . وأخذ الثاني كيانه في الجهة الذاتية Subjective التي يمثلها العقل لذاته من قوة تفكيره وتصوراته ومقدار فهمه وارادته وعمله .

أما المبدأ الاول فقد استقيناه من فكرة ديكارت في المادة والاجسام المادية حيث قضى بأنها لا توجد الا في مكان أو امتداد ، كما حكم بأن العلة تنحصر في الأثر الميكانيكي الصادر عن كمية محدودة من الحركة منبعثة عن خصائص المادة نفسها . فهي عنده عبارة عن مدرك آلي — ميكانيكي — يتضمن الكون كله بما فيه مما تناوله النظام وماسادت فيه القوضى ، لا يخرج عن تلك الآلية من شيء . الا الفكرات أو القوة المفكرة التي لا يمثلها الا النوع الانساني وحده . وتشكل هذا المبدأ من بعد ذلك في قالب صبته فيه فكرة نيوتن حيث قال بالزمان المطلق والمكان المطلق . فالزمان المطلق في ذاته وبحكم طبيعته الخاصة به يفيض بنسب

متعادلة ، اذا لم يكن لشيء من الاشياء الخارجية عنه أية صلة به . وكذلك المكان المطلق يظل في طبيعته وماهيته واحداً لا يتغير ولا يتحرك ما لم يكن له اتصال بشيء خارج عنه .

وأما المبدأ الثاني فتمثله فكرة ليبنتز في الرأي الذري - *Monadology* - اذ يقضي بان المادة ليست منفعة بل فاعلة ، وأن الحركة ليست علة الـكون ، بل أن القوة هي العلة فيه ، وان ما لا ينتج شيئاً لا يمكن أن يكون بشيء ، وأن الزمان والمكان اعتباريان ، وأن الاشياء المادية مراكز تنبعث عنها قوة فاعلة مؤثرة من طريق هذه الأفكار التي ذاعت في المادة والعلة ، تأتي علاقة النسبية . وهذه الأفكار ليست الا من اوضاع الغيبيات في أخص معانيها . والحقائق الآتية من طريق الاختبار ، وان كانت السبب الذي ساق في الواقع إلى تكوين الفكرة في النسبية تكويناً علمياً ، الا أن هذه الحقائق بذاتها لم يكن لها من أثر عملي في ابراز هذه الفكرة الا قليلاً . أما النتائج النظرية المنترعة من هذه الحقائق فهي التي كفلت تغيير أوجه النظر العلمي وطريقة التفكير العلمية . واذا نظرت بتأمل الفيت أنها حقائق ثبت أنها حاسمة من ناحية النظر في مشكلات ما بعد الطبيعة . فالمعاملات التي تناولتها هذه الحقائق بتغيير لم تتجاوز أشياء تناهت في الضؤولة وحقارة الشأن ، كاختلاف التقدير في ٤٢ ثانية في قرن من الزمان ، أو خطأ في ٢ ١/٢ بوصة من محيط كرة الارض . اذن فليست الحقائق بذاتها هي التي يعظم عندنا خطرها ، بل ان خطرها ينحصر في ما يترت عليها من النتائج . ولقد أظهر العلامة ويلدون كار الذي نلخص عنه هذا المقال في كتابه « نظرية النسبية من وجهتيها الفلسفية والتاريخية » ان هذه النظرية قد اثبتت بما لا سبيل الى أدخاضه طبيعة هذا الـكون الذرية - نظرية الجواهر الفرد القديمة التي وضعها ديمقريطس . وقضت علينا بأن لا نجعل علومنا مركزة في أساسها المدعم المتين على حقيقة نتخيلها منفصلة عن الذرات المادية ، بل على العكس من ذلك جعلتنا نستمد حقائقنا من قوة كامنة داخل الذرات نستطيع أن نعالم بها الظاهرات الطبيعية ونوفق من طريقها بين الآراء المختلفة التي ظلت حتى اليوم تتنازع البقاء في العقل الانساني

ان أخطر المسائل التي تركز عليها النسبية في علاقتها بما بعد الطبيعة ، تنحصر

في موقفها السلبي تلقاء ما كنا نعتقد في الزمان والمكان باعتبارها شيئان مطلقان يتبع أحدهما الآخر بنسب مستمرة دائماً . ونظرية النسبية تتقبل النتائج الحاسمة التي تؤدي إليها الاختبارات التي تضاد الحقائق الطبيعية التي تثبت عدم وجود شيء من النسبة المستمرة بين الزمان والمكان ، وترفض بحكم مبادئها أن تعترف بضرورة الاعتقاد بديئاً بشيء وهمي خيالي يقال له « الزمان المكاني » المطلق ، باعتبار أنه شيئاً لا يعتريه الاختلاف بنسبة الناظرين إليه . وهي فوق ذلك تزودنا بمعادلات اصطلاحية تبين لنا أن حقيقة حادثة من الحوادث التي تقع في الكون تبقى ثابتة في نظرائين ولو نظر كل منهما إليها من جهة بعينها في النظام الكوني ، من غير احتياج للقول بنظام ثابت مطلق تفرضه خارجاً عن نظام الجهة الكونية التي يكون فيها كل منهما

الخطرة النفسية وموضوع الذهن

بحث عامي فلسفي

ان كل خاطر يمر بالنفس ، وكل فكر يعن لنا هو عبارة عن وحدة قائمة بنفسها وجوهر بسيط غير قابل للانقسام . فلا أجزاء له ينحل إليها ، ولا ذرات بسيطة يتألف منها . بل ولا يوجد تشابه بين فكر وفكر ، ولا تجانس بين هاجس وهاجس اللهم الا تشابه نوعي كما تشبه أفراد النوع بعضها بعضاً مع بقاء كل منها جوهرًا مستقلاً بنفسه . فاذا تكرر فكر من الافكار في الذهن ، فان الفكر العائد هو فكر جديد كل الجدة ، وليس له أية علاقة بشبيهه البائد ، إلا من حيث التشابه النوعي فقط وقد وهم بعض الفلاسفة وظن بان الفكر ليس وحدة قائمة بنفسها ، بل أن ماهيته مركبة من أجزاء دقيقة ، وذرات بسيطة يتألف من تركيبها الفكر المنشود فتعود الحالة النفسية بذاتها اذا تم اجتماع تلك الذرات وتألفت تلك العناصر المكونة لها على هيئتها السابقة . بيد أن الابحاث الحديثة في علم النفس قد بددت ذلك الخطأ ، وأرتنا أن سبب تكرار الحالة الذهنية يرجع إلى أن لكل خاطر أو فكر يمر بالنفس موضوعاً خاصاً تستغرق فيه الحالة النفسية ، إذ لا يمكن تصور

خلو السائح الذهني من الاشتغال بموضوع ما ، والاحتواء على أمر مفكر فيه ، ونظراً لأن موضوع الذهن يظل عادة أمام النفس فترة من الزمن ، فأننا نمضي تفكير فيه بصورة سريعة بحالات نفسية تشبه بعضها البعض تشابهاً نوعياً تاماً نظراً لذاتية الموضوع أمامنا وثباته وعدم تغيره بالنسبة الى الذهن تغيراً جوهرياً على أننا إذا سلمنا مع اولئك الفلاسفة ، وقلنا معهم بان الفكر يعود بنفسه وذاتيته فالعلم الحديث يقول لهم بان موضوع الذهن ، وكل شيء تفكر فيه ، ليس منفرداً قائماً بنفسه . بل أنه جزء من مجموعة مواضيع أو أشياء متصلة به اتصالاً قريباً أو بعيداً . وأن ذلك الموضوع يتخذ بالنسبة لمجموعة هذه الاشياء أوضاعاً نسبية غير متناهية ، وأن علاقاته بها لا يمكن حصرها لانها غير محدودة . فأننا عندما تفكر فيه كل مرة نراه دائماً بوضع جديد وعلاقة جديدة فنعاود التفكير فيه بحالة نفسية جديدة تختلف كل الاختلاف عن الحالات النفسية السابقة لها في المحتوى الذهني جملة وتفصيلاً . لانه يستحيل على النفس أن تتصور شيئاً من الاشياء عارياً عن كل العلاقات ، منفرداً عن كل النسب مجرداً عن الارتباطات ، لأن هذا الشئ المجرد غير موجود فعلاً .

على أن الذهن يعتاد تناسي العلاقات الواقعة بين الاشياء وبين الموضوعات ، ويألف اغفالها ، وعدم الاهتمام بها مع أنها موجودة تصحب الشئ وتلزمه دائماً وتحدث حوله ظلاً أو هالة تجعله بارزاً جلياً منيراً . وبالنظر لان العلاقات والنسب والارتباطات التي تكتنف موضوع الذهن لا يحصيها العد كما قلنا ، فلا بد من أن تكون الحالات النفسية المقابلة لذلك متنوعة ، أبدية التغير يستحيل تكررها بذاتها . وكل ما نعرفه عن الشئ هو ظهوره ظهوراً نسبياً ، أي بالنسبة لمجموعة الاشياء التي أمامنا في وقت ما .

أما الامثال على ذلك فكثيرة : من ذلك أن الاشياء الزاهية اللون تظهر لنا في نور قوى كأنها بيضاء . وقد حسب الاستاذ هلمولتز Helmholtz الألماني مقدار الفرق بين ظل صورة تمثل بناء شامخاً مجزأً بالرخام نراها في ضوء القمر ليلاً ثم نراها في ضوء الشمس نهاراً ، فوجد انه يتراوح بين عشرة آلاف الى عشرين الف ضعف ! ومن ذلك أيضاً أن الوقت يظهر لمن استيقظ صباحاً من نوم طويل عميق كأنه ظهرأ ، ومن الامور المشاهدة أن عواطفنا ومشاعرنا نحو موضوع

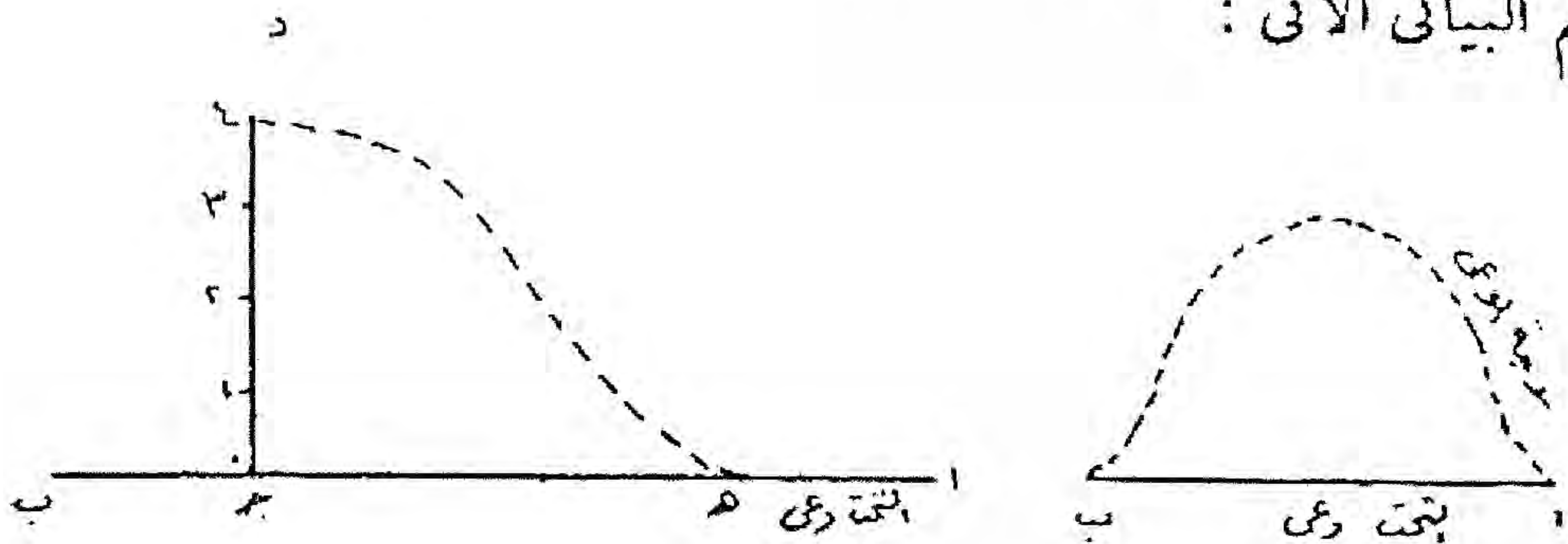
واحد تتغير من عصر الى عصر ومن سن الى سن . فما كنا نراه في الصبا
أمراً حسناً قد نعجب في سن الكهولة أو الشيخوخة لأثره السابق في نفوسنا .
وقد لا يهزنا الآن شعر شاعر أو نثر كاتب ، أو مؤلف كنا نبذل في ماضينا كل
نفيس في سبيل تلاوة ما يخطه قلمه ويمليه الهامه .

وقد زاد الى خطئ القائلين بعدم بساطة حالات الوعي وخطرات النفس وانها
مؤلفة من أجزاء ، ظنهم أن تكرار الفكرة والسانحة الذهنية يلزم منه تكرار
السيال العصبي Nervous Current الذي ينساب في المخ بمقدار يكافئ تلك الحالات
النفسية . على أننا نعرف من علم وظائف الاعضاء « الفسيولوجيا » مبلغ استحالة
ذلك . فإن السيال العصبي الذي يسير في الاعصاب ويغمرها يتدفق كالنهر الدائم
الجريان . فمن المستحيل اذن معاودة جزء من ذلك السائل بنفسه بما يكافئ أية
خطرة من خطرات النفس حتى ولو فرض وكانت غير متغيرة . على أننا نعرف أن
موضوع الخطرة النفسية والسانحة الفكرية غير ثابت بل إنه متغير أبداً . وذلك
لمكثرة المناحي والوجهات التي نراه فيها وتعدد الاشارات والنسب حوله تعدداً
لانهائية له . فمن المستحيل اذاً أن يكون السيال المخي المماثل له واحداً لا يتغير تبعاً
لتغير الموضوع . والذي نعلمه أنه هو الآخر غير ثابت في مظهره وكميته وأنه
قلق متقلب لا يظهر بازاء الحالة الوعائية إلا مرة واحدة ثم يختفي الى الابد . ومن
الثابت أيضاً أن الحالة الفسيولوجية العامة للمخ تتفاوت تبعاً للوقت والسن والصحة
والمرض . فقد يكون المخ أو بعض أجزائه مغموراً في لحظة ما بكمية زائدة من
الدم . وقد يكون في آن آخره صاباً بفقره كما وكيفاً . فظهور الحالة الذهنية السابقة
مرة ثانية اذاً مستحيل من الوجهة الفسيولوجية أيضاً .

وما نتجت هذه الاخطاء وشاعت الا مجازاة للعرف الذي جرى عليه عامة
الناس منذ القديم . واعتبارهم الاشياء مؤلفة من أجزاء متضامنة يقابلها في الذهن
صور نفسية تماثلها وتقابلها ، مركبة هي الاخرى ، على غرارها ومثالها . فالفكر
عندهم مؤلف من أجزاء وذرات . وقد تجد ذلك منبثاً في تضاعيف الفلسفة
اليونانية والعربية . فكم من أبحاث لهم عقيمة في الوجود وأقسام الموجود
والصورة والهيولى والجوهر والعرض وقابليتهما أو عدم قابليتهما للانقسام وما
يتبع ذلك من مسألة الذرات والجوهر الفرد مما هو مبسوط في كتب ارسطو ومن

تابعه من فلاسفة الاسلام كابن سينا في الشفا والاشارات والنجاة ، وابن رشد في تلخيصاته ، ونصير الدين الطوسي في التجريد وشرح التجريد ، وغير ذلك مما فرغ منه الغربيون منذ أيام اللورد بيكون الانكليزي وغاليليو الايطالي وديكارت الفرنسي ، وغيرهم ممن أظهروا للعالم الاضرار التي لحقتها تعاليم المعلم الاول بالثقافة العالمية ، ويريدون اليوم باسم التحقيق والخدمة العلمية ارجاعنا اليه كأنهم يكفهم تورط الأمم الاسلامية أكثر من الف عام في ترهات هتك سترها تقدم العلم الحديث .

ومن الغريب أن يوجد بين كبار الفلاسفة من كان يرى أن الفكر مؤلف من عناصر مستقلة بعضها عن بعض كدافيد هيوم الانكليزي . وعنده أن الاتصال بين عناصر النفس وحالاتها مفقود . على أن كل هذه النظريات قد أبادها العلم الحديث سواء بنظرياته أو بتجاربه . فنحن نعرف الآن أن الفكر مستمر متواصل تواصل جريان الماء في النهر . وقد مثل الاستاذ مورجان لذلك بالرسم البياني الآتي :



فالخط الافقي ا ب يمثل الحالة النفسية التي تمر في النفس دون أن نعي مرورها ومثلها في ذلك كاعماق المياه في البحر أو المحيط أو النهر العميق . فالماء جار على اننا لا ندرك جريانه ولا نشعر به . وكل ما نعرفه هو الامواج التي تعلو سطح الماء . والحالات أو الخطرات النفسية التي نشعر بمرورها في النفس هي كالامواج الشائكة. والخط الرأسى ج د هو مقياس ذلك الشعور وذلك العلم الذي تتركه الخطرة الذهنية في النفس . وهو كما ترى مدرج وعلى حسب ارتفاع رأس الموجة الوعائية يكون شعورنا بأثرها في الذهن . ولموجة الوعي هذه قاعدة (ا هـ) يدعوها علماء النفس بالتحت وعى «أو» بالعتبة التحتانية (١) والنقطة هـ التي تبتدىء منها الموجة

(١) انى افضل اصطلاح التحت وعى على اصطلاح اللا شعورى نظرا لأن ذلك الاصطلاح أدل على الأصل الافرنكى Subconsciousness أو Souconscience في الفرنسية

بالارتفاع تسمى عادة بعتبة الوعي أو بالعتبة أو بالهامش أو بالهدب «التحت وعيني» .
ورأس الموجة ونهايتها يسميها الاستاذ مورجان « بلحظة الوعي » أو « ببورة
الوعي » وذلك لأنها تجمع أو تحصر القوى النفسية في خطرة واحدة كما تجمع
العدسة خطوط النور في نقطة واحدة هي البورة .

ان في قرار كل نفس تتوالى حالات الوعي بصورة مستمرة أبدا غير متقطعة .
كتوالى جريان الماء الدافق في مجرى نهر عميق . وكما ان الفراغ في العالم الخارجى
غير ممكن التصور فكذلك الفراغ الذهني أو انعدام الحالات النفسية ولو لحظة
لا يمكن تصوره .

ان معنى الاستمرار هو الاتصال الذى لا تقطع ولا انقسام فيه . وقد وهم
البعض وظن أن الحالات النفسية تقف عن الاستمرار وتتقطع بأمر عارض للنفس .
مفاجيء لها . وقد خطأهم الاستاذ جيمس بعد أن بحث معهم ووجد أن التقطعات
المحتملة في مجرى الفكر ثلاث . أولا ايقاف أو مقاطعة عمدية مقصودة أو
اضطراب فجائى في الفكر . وهو يقول انه بالرغم من التباين بين حالتين نفسيتين
فان المرء يشعر بأن كل خطرة نفسية تابعة لما سبقها وملحقة بها تمت اليها بصلة
متينة تقسر على اللحاق بها . والحالة الثانية هي فاصلة زمنية وذلك بأن يكون
بين حالة وعي وأخرى فاصلة زمنية كأن يفصل النوم بين حالتين متباعدتين كل
البعد في الصفة والمحتوى . وكأن يعترى المرء اغماء يفصل بين حالة نفسية مشعور
بها وأخرى كذلك . وكأن يخدر الانسان أو يصرع أو يسمم بالغاز المضحك
الذى يستعمله أطباء الاسنان في العمليات الصغيرة «Nitrous Onide» على أن
هنا أيضاً يشعر المرء في حالته النفسية الجديدة انه هو نفس الشخص الماضى .
وأن حالته النفسية الحاضرة شديدة الاتصال بالماضى وجزء منه لا ينفصل عنه

على أن الشعور بأن الانسان في حالته الراهنة وبعد الخروج من حالة
لا وعية «لا شعورية» هو جزء لا يتجزأ من كلى ، هو الشخصية المستمرة يصحبه
عادة شئ من اللحمة والودأ وما يسميه علماء النفس « بالحرارة النفسية » Warmth
بخلاف علاقتنا بالأفكار الغريبة عنا الغير تابعة لنا فاننا لانشعر نحوها بذلك
العطف وتلك الصلة أو تلك الحرارة والانس . فالوعي اذن ليس متقطعا بل انه
متواصل الجريان ينساب في النفس انسياب ماء النهر سواء بسواء

أما المفاجئات في صفة الوعي فأبين الامثلة على ذلك هو هزيم الرعد وقصف المدافع ومفاجأة الصواعق أو ظهور شيء جديد غريب أو مفاجيء والمفاجآت على أنواعها عامة . وقد وهم القائلون بتقطع حالات الوعي بورود حالات جديدة مفاجئة لسببين : أولاً أنهم خلطوا الحالات النفسية الواردة على النفس بما يقابلها خارج الذهن فظنوها متقطعة كل منها مستقلة قائم بذاته كتقطع مواضع الخطرات النفسية والاشياء الخارجية في استقلالها وقيامها بنفسها وذلك من الخطأ بمكان . وذلك نظر سطحي لأن الحالات النفسية ليست مستقلة كل منها قائم بنفسه مستقل ومنفصل عن غيره كالأشياء الخارجية . وما يسميه فلاسفة العرب بالوجود العيني . بل ان كل حالة نفسية مندمجة فيما قبلها ممتزجة بها امتزاج الموجهة بالموجهة متصلة بها اتصال الموجهة بسطح الماء . فالانفجار أو الرعد القاصف أو ظهور شيء جديد لا يورث في النفس حالة تقابل الشيء المفاجيء وحده فحسب ، بل ان ما يحصل في النفس هو اننا نشعر بأنه حالة جديدة واردة على حالة قديمة . وبعبارة أخرى اني عندما أسمع هزيم الرعد أشعر في نفسي بحالة نفسية هي هذه : هزيم — رعد — واردة — على — سكون — ومضاد — له . فأنت ترى بذلك أن مثل هذه الحالات النفسية التي كل واحدة منها وحدة قائمة بذاتها لا يوجد ما يقابلها في العرف واللغة فاللغة ناقصة كأداة للتعبير ومن المستحيل عليها أن تعبر تماماً عما يجول في الخاطر . ذلك ان الخطرات النفسية تشمل أكثر مما يحتويه اللفظ . وتجد المثل واضحاً جلياً في المثل الذي أوردته هنا . فالاستعمال اللغوي يسقط كثيراً من الاشياء بينما تعيها الحالة النفسية . ومن هنا يتبين لنا السر في استحالة التعبير عما يجول في الخاطر . ويتبين لنا أيضاً التفاوت بين اللغات . فليس سعة اللغة وتفوقها بكثرة المترادفات وتعدد الألفاظ بل بكثرة الاساليب السهلة المعبرة عن كل ما يجول في الخاطر ويسمح للنفس حسب الاستطاعة .

على أن ما ذكرته يقابله في المخ أيضاً عملية شبيهة بتلك العملية النفسية . وذلك ان لكل خيرة ذهنية عملية مخية مادية محضة برهن على وجودها علماء النفسولوجيا « علم وظائف الاعضاء » وذلك بأن يمر أو يصب سيال يسمى بالسيال العصبي في خلايا المخ وأعصابه واليافه ومراكزه ويغمرها . وعندهم انه اذا لم يكف مؤثر واحد في انتاج حالة نفسية مقصودة فقد يتم ذلك بتجمع مؤثرات

مخيه متعددة تنصب كلها على مركز مخي واحد فتنتج الحالة النفسية المطلوبة .
 على انه لا يوجد عملية مخيه واحدة ، بل ان كل ما يتم في المخ يتم بانصباب تيارات
 مخيه مختلفة ينتجها السعال العصبي في آن واحد ، وهو ما يسمى عندهم « بقانون التجمع »
 « Summation » . وكذلك الامر في الحالات النفسية المقابلة ، فانها هي الاخرى
 مختلطة ممزوجة مندمجة بعضها ببعض ، وان تكن موجة الوعي التي تكلمت عنها
 هي آيين أجزاءها وأكثرها بروزا وظهورا . فسير الحالات النفسية الحالية وسرعة
 جريانها في الخاطر يتوقف على الحالات السابقة لها كما يتوقف حجم الموجة وسرعتها
 على العوامل الكثيرة التي تسير النهر وتوجهه في مجراه . واذا كان استمرار
 السعال العصبي في المخ يشبهه تماما تيار الماء الجاري في مجرى النهر ، فان الحالات النفسية
 أيضاً كذلك . فالنفس نهر واسع عميق المجرى دافق كثير الامواج .
 ع . حسين تقي اصفهاني

عن ليالى الفريد دو موسيه ترجمة الدهشان

آلهة الشعر :

تدور على المحور المضطرم	مذ الشمس دارت بافق السما
ن مداراً يضيء بها من قدم	ومن يوم جازت من السرطا
ت على الصمت مغتمة والألم	عدتني السعادة حتى لبث
ب فضاء زمانى ولما أنم	وأرقب وقت نداء الحيد
د ومغناه قفر عرته الظلم	فوا أسفا - من زمان بعيد
ولا يوم يبعث بعد العدم	وأيام ماضٍ سعيد قضت
على قناع أخاف التهم	ووحدي أجيء على خفية
على بابه في اتهام القضا	وأسند في حسرة جبهتي
على قبر طفلٍ وحيد قضى	كأرملة أجهشت بالبكا

الزولوجيا

أو مبادئ علم الحيوان

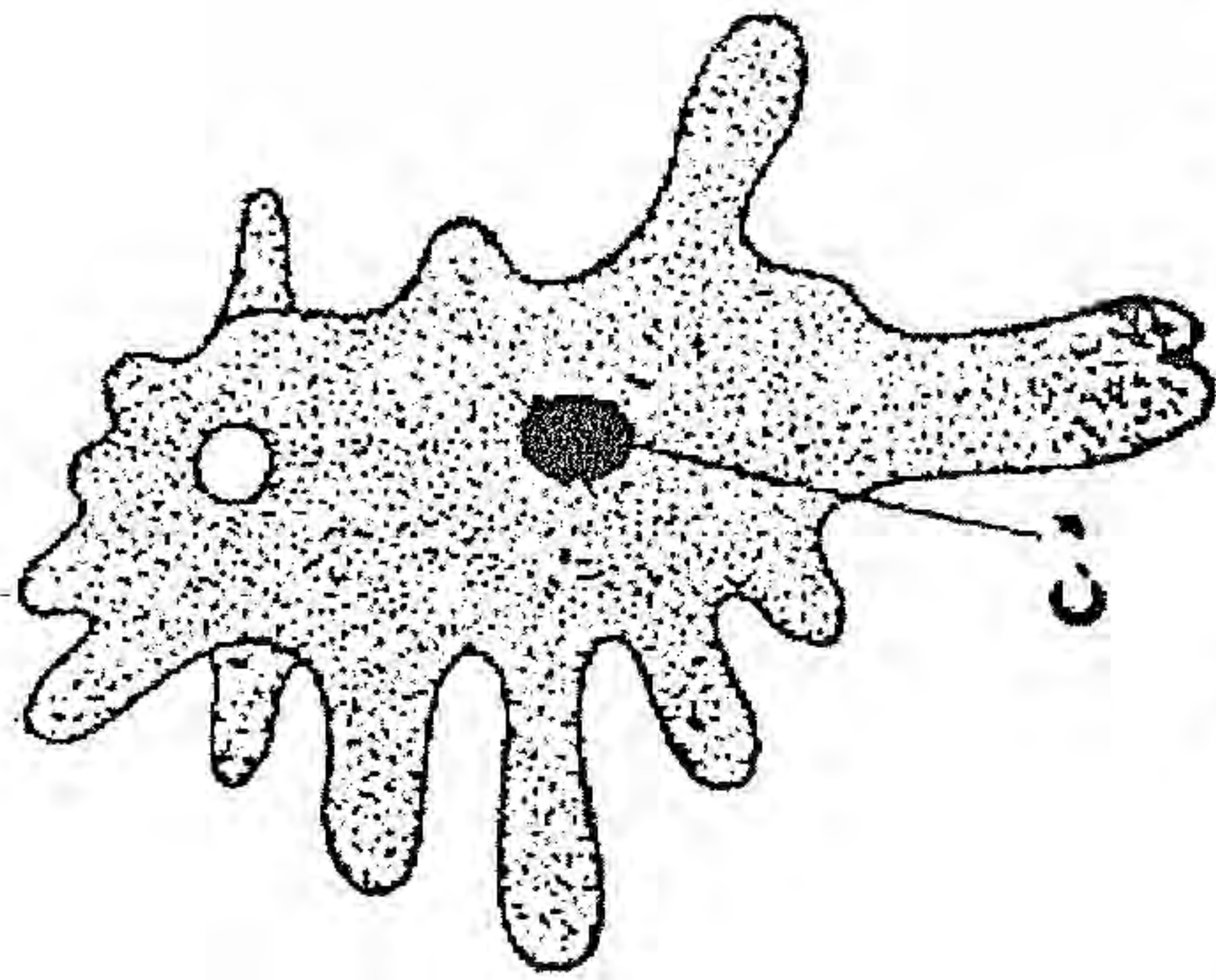
— ٣ —

المادة الحية

بعد أن أحطنا علماً بطبيعة علم الزولوجيا والغرض منه ، تتابع الكلام في تفصيل بعض المسائل الخاصة التي يتناولها هذا العلم بإيجاز . ومن العبث أن نحاول في مقالات صغيرة الحجم كهذه المثالات ، الالام بكل ما تدور حوله مباحث هذا العلم . وكل ما في مستطاعنا هو أن ننتخب من مباحثه أمثالا قليلة من المسائل التي عالج حلها الزولوجيون ، ونشرحها شرحا موجزا يفي بالغرض من الاطاحة بالمبادئ الاولى .

تدل الحياة على وجودها بالحركة . سواء في ذلك النباتات ، اذ تتحرك تلك الحركة المحمولة على النماء ، أو الحيوانات اذ تأتي أجزاؤها التامة النماء بالحركة منصرفة في اتجاه ما ثم مرتدة الى مواضعها القياسية . فاذا تركنا الكلام في حركة النباتات المحمولة على معنى النماء ، ووجهنا النظر الى الحركة الحيوانية ممثلة في تحرك الاجزاء البالغة ، فان أول سؤال يعترض سبيلنا هو كيف تنتج هذه الحركة ؟ وكيف تسبب ؟ فاذا اكبننا على امتحان اجزاء صغيرة أو قطع نأخذها من أجزاء الجسم التي تنبعث عنها الحركة ، نعثر دائما على الياف ظاهرة تصبح لدى الحركة أقصر امتدادا أو أضخم حجما . وهذه الالياف التي ندعوها « الالياف العضلية » هي سبب الحركة المباشر في كل الحيوانات العليا . أما في الحيوانات الدنيا فانا نعثر على كتل من المادة الصافية تنبعث منها انبعاجات على نمط خاص ، تمتد أولا في اتجاه واحد ، ثم في اتجاه آخر . أما أبسط كل الحيوانات - حيويين البروتيوس - *Proteus Animalcule* ويدعى اصطلاحا الاميبا *Amoeba* فيتكون من كتلة من المادة لا صورة لها ، وهو يتحرك بانبعاجات السنة مستطيلة من جسمه على الصورة

التي سبق شرحها . وهذه الحركات تدعى اصطلاحاً بالحركات الاميبية Amoeboid ولكنها في طبيعتها وجوهرها نفس الصورة القياسية للحركة التي تتم بانقباض العضلات في الحيوانات العليا ، لان امتداد تلك اللسنة في الاميبا لا يحدث إلا بانقباض جزء ما فيضغط على بقية الاجزاء . وكثيراً ما نجد في الحيوانات، البسيطة منها والمركبة ، تراكيب ناتئة بارزة شبيهة بالشعرات الطويلة تدعى اصطلاحاً بالاهداب Cilia أو السياط Flagella تهتز بانتظام وتدفع جسم الحيوان الى الامام اذا كان صغير الحجم ، أو تدفع السائل المحيط بالحيوان محدثة تياراً يترك الحيوان منحدرأ ورائه اذا كان هذا كبير الحجم .



ش (١) الاميبا في حالة الحركة ،
وهي تتحرك الى اليمين (ن) النواة

غير أنه اتضح أن اهتزاز هذه الاهداب والسياط انما يحدث بانقباض قطع طويلة مستدقة تكون علي جانبي التركيب المهتز انقباضاً متتابعاً . وعلى هذا يمكننا أن نلخص الامر في القاعدة الآتية :

« كل الحركات الحيوانية انما ترجع الى انقباض في الاجزاء المتحركة ، تصبح معه تلك الاجزاء أقصر طولاً وأضخم حجماً »

فاذا استطعنا أن نفسر تفسيراً جلياً كيف يحدث هذا الانقباض ، سهل علينا أن نفقه سر الحياة على صورة أدق من الصورة التي تحيزت في عقولنا حتى الآن . غير أنه على الرغم من أن مثل هذا التفسير الجلي بعيد عن ان نبلغ اليه في الوقت الحاضر ، فانه يمكننا أن نأتي على بضعة دقائق في حركة الاجزاء الحيوانية . فان المادة الصافية التي هي مبعث الانقباض ، تكون على الدوام محوطة بطبقة من البشرة تتكون من غشاء رقيق مرن . فاذا أردنا أن نعرف حقيقة تلك الحركة التي سميناها بالحركة « الاميبية » وأمعنا النظر في الحيوان المتحرك ، وجدنا أن البشرة لدقتها ورخاوتها تنفجر ، ثم تعود إلى الالتئام حول المادة الصافية التي تكون قد برزت من موضع الانفجار . والظاهر أن هذه المادة عبارة عن سائل أو شيء فيه كثير من طبيعة السوائل ، وأن فعل الانقباض ، حسب ما يظهر لنا ، يصحبه ازدياد في حجم هذه المادة ، لان الالياف عندما تقصر في الطول ،

يزداد ، كما رأينا من قبل ، قطرها ، ويضخم حجمها في الجملة . أما في ارقى الالياف المنقبضة تركيباً ، كتلك التي نجدها في أجسامنا وأجسام الحيوانات العليا ، فانا تقع على ظاهرة سميت علمياً « التخطيط القطعي » Cross Stripnig للالياف . فان كل ليفة قابلة للانقباض في حالة الراحة وعدم الحركة ترى مقطوعة بسلسلة من المناطق قائمة اللون ، وتقع في أبعاد متساوية من بعضها البعض ، كما تكون « فلتكات » السكة الحديدية تماماً . ومن خلال المناطق ترى الليفة . وهي تتكون من مادة صافية شبيهة بالسوائل ، فعندما يحدث الانقباض تزداد كمية تلك المادة الصافية في الحجم . وتظهر كما لو كانت قد امتصتها تلك المناطق القائمة ،



ش (٢) جزء من ليفة عضلية ذات تخطيط قطعي
(ان) مادة غير متجانسة . (اس) مادة متجانسة
في ليفة معينة (ف) ليفة (ن) نواة

يعد أن تنتفخ وتكبر ،
ويصبح لونها أقل قتاما .
وتعرف هذه المناطق من
تأثرها اذا تعرضت للضوء
فانها تصبح صلبة جامدة ،
كما يلوح أن الغرض منها

ينحصر في أنها تحدث في المادة السائلة جذبا قويا يزداد معه سرعة انقباضها .
ومن المعروف أن الالياف ذوات « التخطيط القطعي » تنقبض باسرع مما تنقبض
الياف العطل من هذه الظاهرة ، وأن هذا التخطيط اكثر مايكون ظهورا
في الياف العضلات التي تحرك أجنحة الحشرات . وهذه العضلات لا بد ، لكي
تؤدي الغرض منها ، من أن تنقبض وتنبسط عدة مئات من المرات بسرعة فائقة
خلال ثانية واحدة من الزمان .

ويتضح لنا من هذا أن ازدياد حجم تلك المادة السائلة — أى الشبيهة
بالسائل — من أول الاسباب ، إن لم تكن السبب الوحيد ، في احداث الانقباض .
أما الطريق الأوضح الذي نعرف به كيف يحدث هذا الازدياد في الحجم ، فقصور
على وسائل التحليل الكيماوى . فانه من المعروف أنه اذا وضع عود مشعل من
الثقاب في كمية البارود الذي تحويه خزانة مدفع ، فان احتراقه يحدث ازدياداً هائلاً
في الحجم ، سببه أن المواد التي يحتوى عليها البارود تتأكسد Oxidise ومعنى
هذا انها تمتزج باوكسجين الهواء ، فينتج عن ذلك كميات عظيمة من الغازات

البالغة من المرونة أقصى مبلغ . وبهذا نجد أنه إذا استطعنا أن نزيل كل أثر من حول الاجزاء المنقبضة في حيوان ما ، فإنها تصبح في أسرع وقت عاجزة عن الانقباض . انها تصاب بالشلل العاجل . وانى أستصوب فرض أن التحليل الكيماوى الذى يصحب الانقباض هو في حقيقته ذو صلة بطبيعة التأكد .

فضلا عما تظهر به الحياة من القدرة على الحركة ، فإنها تدل على وجودها بفعل آخر هو فعل « الافراز » Secretion ويعني بالافراز الاستمرار على انتاج مواد ليست بذاتها مواداً حية ، ولكنها تؤدي للحيوان بعض الفوائد الثانوية . فالشعر الذى يكسو أجسامنا إنما يتكون من مادة قرنية ميتة . ولكن لا يمكننا أن نقدر ما نحجى من جراء وجوده من الفوائد ، اذ أنه يحمى الجسم من أن يفقد جزءاً كبيراً من الحرارة لا فائدة من فقدانه ، بل أن فقدانه ضرر بالغ .

وقد يكون الافراز في صورة سوائل ، والعصير الهضمى الذى يغير الاطعمة الصلبة التى نغذى بها الى مواد سائلة ، وبذلك يمكن أن تندمج في مادتنا الحية وتساعد على « بناء أجسامنا بطريقة الانمواد » هو أحد هذه المفرزات أما المسألة التى نريد أن نوفيها الآن حقها من الشرح والبيان فتتجصر في أننا اذا أمعنا في البحث حتى نصل الى تلك الحالة التى يبلغ فيها الافراز أقصى مبلغ من النشاط ، نعثر على كتل من المادة السائلية الصافية تشابه في جوهرها تلك المادة التى لا نعثر بها في الالياف القابلة للانقباض ، وانه باستمرار فعل التحليل الكيماوى في تلك المادة يحدث الافراز . — وكذلك اذا بحثنا جزءاً من الاجزاء الآخذة في أسباب البناء بسرعة ، فانا نعثر على نفس هذه المادة السائلية . وعلى الجملة نجد أن كل مظاهر الحياة مقترنة بوجود هذه المادة . أو نقول بعبارة أخرى إن هذه المادة هى المادة الحية ، وان جسم أى حيوان إنما يتركب من هذه المادة ومن افرازاتها معاً .

ان هذه « المادة الحية » العجيبة تدعى علمياً « البروتوبلازما » أى البلازما الاولى أو المادة الحية الاولى . وما دمنا نعتقد بأن سر الحياة مخبوء في هذه المادة لهذا نتكلم فيها بشيء من الاطناب .

إن هذه المادة ليست مادة بسيطة متسقة ، بل هى خليط من عدة مواد . وفى كل كتلة من البروتوبلازما الحية نعثر على نواة أو عدة أنوية . وهذه النواة

تكون عادة متصلة بالمادة الحية ، وتكون إما بيضية الشكل أو كروية ، ولكنها في بعض الحالات الشاذة تأخذ الشكل المصوى ، فتكون كالمصا صورة ، أو تكون في صورة خيط حلزوني ، أو ركام في الحبيبات granules على أنها في أكثر الحالات تكون جسماً بيضى الشكل أو كرويه . أما المظهر الذى يمكننا أن نميز به النواة فاحتواؤها على مادة تدعى علمياً « الكروماتين » Chromatin وهذه المادة لها أكبر القدرة على امتصاص المواد الصابغة مثل الكارمين Carmine والهيما توكسولين Hematoxylin الذى هو عبارة عن خلاصة خشب البقم الاحمر وغير ذلك وقد يحدث في بعض الحيوانات الصغيرة أحياناً أن لا يوجد أكثر من نواة واحدة . وفي هذه الحالة يكون من المستطاع أن تقطع جسم هذا الحيوان الى جزئين ، أحدهما يحتوى على النواة ، والآخر عطل منها . فالجزء الذى يكون بلا نواة يمكن أن يعيش زماناً ما وأن يأتى بحركات ، ولكنه يكون عاجزاً عن هضم غذائه أو تمثيله assimilation أى تحويله الى أنسجته الخاصة به ، ثم لا يلبث أن يموت بعد قليل . ومن هنا نستنتج أن انتاج المواد التى تذيب مواد الغذاء الصلبة (الهضم) وإعادة بناء الاغذية المهضومة في المادة الحية (التمثيل) هى خصائص لا يمكن أن تقوم بوظائفها الا بمساعدة الكروماتين .

إذا صرفنا اصطلاح « البروتوبلازما » على المادة الحية في مجملتها ، فأننا ندعو الجسم الذى يحوى الكروماتين بالنواة Nucleus أما ما يتبقى من المادة الحية بعد ذلك فنسميه اصطلاحاً « السيتوبلازما » cytoplasm أما مادة النواة بما فيها الكروماتين الذى يحتوى عليه فتدعى اصطلاحاً « الكاريوبلازما » Caryoplasm وعلى الجملة نجد أن كمية المادة النووية الموجودة تكون ذات نسبة محدودة ، تزيد أو تقل على مقتضى الحالات ، بالقياس الى السيتوبلازما المحيطة بها ، وقد تأخذ تلك المادة صورة نواة واحدة كثيرة التفرع ، أو عدة أنوية صغيرة كروية الصورة . هنالك حيوانات صغيرة جهد الصغر ، حتى أن نواة واحدة تكفى لسد كل حاجاتها في الحياة . ولكن في أكثر الحيوانات أنوية عديدة ، وفي كل الفصائل العليا من عالم الحيوان (وتوضع في مجملتها عادة تحت اسم الميتازووا — أى ذوات الخلايا) توجد منطقة من السيتوبلازما تحيط بكل نواة من الانوية ، وهذه الانوية تكون منفصلة عن بقية السيتوبلازما بغشاء رقيق . ومجمل هذه المنطقة تدعى « خلية » cell

وعند ما نعثر على مادة حيوان في حيوان من الحيوانات مقسمة هذا التقسيم نقول ان هذه المادة ذات « تركيب خلوى » Cellular structure

يجوز لنا أن نقارن الخلايا باللبنة التي يبنى بها جدار ما . فالحيوانات التي ليست بذات تركيب خلوى تدعى اصطلاحاً « البروتوزووا » Protozoa أى الحيوانات « الاولى » ، وأغلب هذه الحيوانات مجهرية الحجم ، وأكثرها لا ينحتوى على أكثر من نواة واحدة . وقد قورنت هذه الحيوانات بخلية واحدة من الخلايا التي يتكون منها جسم حيوان من الحيوانات العليا . ولذلك سميت « ذات الخلية » Unicellular . ولكن هذه المقارنة قد تقودنا الى مواضع الزلل . لأن هذه الحيوانات ذات آصرة وثيقة بصور أخرى من « البروتوزووا » أكبر منها حجماً بقليل ، وهي تحوى عدداً عديداً من الانوية ، ولهذا يكون من الخطأ أن نقارن الحيويين الشمسي « الهليوزووا » Heliozoa الذي نعثربه في الخنادق والحفر ، وهو يحوى أكثر من مائة نواة ، بخلية واحدة من خلايا الحيوانات العليا . إذن يكون أقرب اصطلاح نصرفه على « البروتوزووا » علمياً هو أن نسميها بالحيوانات « اللاخلوية » Non-cellular فقد أظهر أحد مشهورى البيولوجيين Biologists ، علماء الحياة ، فى أمريكا منذ عهد قريب ، المعنى الحقيقى الذى يقصده الباحثون إذ يتكلمون فى « التركيب الخلوى »

لقد رأينا من قبل أن الحياة تدل على وجودها بأساليب كثيرة : منها الحركة ومنها ضروب عديدة من الافراز . وهنا نعتقد بأن كلا من هذه الاساليب إنما يدل على وجود ضروب كثيرة من التحليل الكيماوى مستمرة التأثير فى الخلية ، وأن الأغشية التي تفصل بين كل خلية وأخرى تنحصر أهميتها فى حقيقة أنها تنظم مرور المواد فى حالتى دخولها الى الخلية وخروجها منها . والحقيقة أن كل خلية من الخلايا عبارة عن معمل كيماوى ، وحيارة أى حيوان لتركيب خلوى ، هى فى الواقع دلالة على التفاعلات الكيماوية الجارية فى كيانه وتنوعها . ولقد أشرنا حتى الآن الى التحليل الكيماوى ، أو بالاحرى الانحلال ، الذى يقع فى المواد الكيماوية المركبة فى الجسم ، سواء أكان هذا مسبب عن الحركة أم الافراز . غير أننا ألمعنا بجانب هذا الى أسلوب البناء الذى تتجدد به المادة الحية من مواد الغذاء التي تتناولها الحيوانات . ولولا هذا لامحت الحياة سريعاً . وهذا البناء ، الذى عرفنا

من قبل أنه يحدث بمساعدة الكروماتين ، يدعى علمياً « الأبدال البنائي » Anabolism في حين أن التحليل الكيماوى يدعى علمياً « الأبدال الهدمى » Kalabolism أما « الأبدال » Metabolism في مجموعه فاصطلاح وضع ليبدل على جملة ما يقع في الخلية من التفاعلات الكيماوية بشرطيهما ، هدماً وبناء .

لا يتيسر للأبدال البنائي ولا للأبدال الهدمى أن يقعا في الجسم الحى من غير وجود الاوكسجين ، الذى يجب أن تزود به المادة الحية على الدوام ، لأن وجوده ضرورى لآحداث التأكسد الذى هو المؤثر الضرورى في انتاج التحليل الكيماوى كما أنه العامل الجوهرى في ايجاد حالة الأبدال في مجموعها . وضرورة امتصاص المادة الحية للاوكسجين تسمى علمياً « التنفس » Respiration . واجمال القول أن وصولنا الى تصور كامل في حقيقة أوجه النشاط التى تقوم بها المادة الحية ، ينحصر في أن تمثل الحياة بحالة « احتراق » مستمرة « فالحياة نار » كما قال بوذا منذ عصور غابرة بعيدة . والرواية التى تقع عليها في بعض الكتب المقدسة عن ذلك الفصن الذى احترق ، ولكنه لم يفن ولم يتلف ، تعبر أحسن تعبير عن التصور الحديث الذى أحدثه العلم في طبيعة الحياة .

إذا استطعنا أن نمى هذا التصور وأن نستوعبه علمياً ، فإن عدداً من النتائج المترتبة عليه تظهر لأعيننا دفعة واحدة . فالتنا كثيراً ما نلاحظ أن نار الفحم التى نشعلها في مواقدنا لا بد من أن تنطفئ بسرعة اذا تركنا الرماد الذى يتخلف عن تأكسد الفحم متراكماً فوق النار . وهذه هى الحال في الحياة تماماً . فان منتوجات التحليل الكيماوى عند ما تبلغ الى حالة الفساد الذى لا يمكن أن تصلح بعدها لان تستخدم لبناء بروتوبلازما جديدة باضافة مواد من مواد الغذاء اليها ، يجب أن تستبعد ، والا فانها تقف سير الحياة سريعاً . وهذه المنتوجات تدعى علمياً « المبرزات » Excretae والطريقة التى يتخلص بها الجسم الحى منها تدعى « الإبراز » Excretion أما أشهر المواد المبرزة فذلك الغاز الذى يعرف عادة ، ولكن خطأ ، باسم الحامض الكربونيك . وهذا الغاز قابل للذوبان في الماء بسرعة . ولما كانت المواد الحية لا بد من أن تكون مشمولة بماء أو بسائل آخر (أى الدم) الماء من أشهر مكوناته ، فان من المستطاع أن نلاحظ أن كل القرص قد تهيأت للذهاب بهذا المركب العازى ! وآخر ما نصل اليه في سلسلة هذا البحث هو أن الحيوان عندما

يتعاطى طعاماً صلباً ويبدأ في هضمه ، غالباً ما يتخلف عنه بقايا تقاوم فعل العصير الهضمي . وهذه البقايا تدعى علمياً « البراز » Faeces وطريقة التخلص منها تدعى علمياً « التبرز » Defaecation

لما كان امتصاص الاوكسجين مقصوراً على الاجسام الحية ، ولما كان التخلص من المبرزات السامة موقوف على طريقة « الانتشار » Diffussion استتبع هذا أن المادة الحية لا يمكن أن تتجمع في كتل كبيرة الحجم ، بل إن الممكن أن توجد في صورة حبيبات صغيرة أو رقائق دقيقة تكون سطوحاً نسبية الكبر لتمضد سائلاً من نوع ما يكون محيطاً بها . أما « الانتشار » فيقصد به علمياً تلك الطريقة التي يمتزج بها سائلان أو غازان ، امتزاجاً هو نتيجة حركة دقائقهما التي تكونهما . أما في السوائل فهذه الطريقة تكون عادة بطيئة الفعل . فان كتلة من البروتوبلازما يبلغ قطرها ربع بوصة ، على فرض إمكان وجود كتلة بهذا الحجم ، لا يتيسر أن يكون مبعوثاً في أطرافها من الحياة ، الا بقدر ما يكون في مجموع قطعة لحم من عناصر النار لدى احتراقها . فان الاحتراق في كلتا الحالتين ، لن يتناول الا السطح دون اللباب ، على فرق ما بين الكتل المادية في الجوهر .

إن مسألة الوقوف على حقيقة تركيب المادة الحية طبيعياً وكيمياوياً يجب أن يكون مبحثاً ذا بال في مباحث علم الحيوان . غير أنها مسألة لما يحيط بها من الصعاب ولما يعتورها من المضلات ، ولما تتطلب من الجهد والصبر ، قد سببت نشوء علم تابع لعلم الحيوان ، أو فرع من فروعها ، حصرت كل مباحثه في معالجة حلها . وقد سمي هذا العلم « البيوكيمياء » Biochemistry أى « الكيمياء الحيوية » ويحسن بنا أن نشير هنا الى بعض من أوجه النجاح التي جناها الذين وقفوا جهودهم على مباحث هذا العلم الحديث خلال جهادهم للوصول الى « سر الاسرار » أى سر الحياة .

لما كانت الحياة عبارة عن نار ، ولما كانت هذه النار تحتاج دائماً الى انتشار الاوكسجين في داخل المادة الحية ، والى انتشار الحامض الكربونيك خارجها ، إذن يترتب على هذا أن تكون تلك المادة الحية سائلاً ، مادام « الانتشار » بالمعنى العلمى لا يمكن أن يوجد الا في السوائل والغازات . وكل المواد المادية لا بد

من أن تحتوى على كميات كبيرة من الماء . لهذا نجد أن الجفاف يقف سير الحياة وينفيها ، ما دامت المادة الحية عبارة عن « محلول » كثيف يتخلف عن مادة توجد في ماء . ولقد ثبت أنه عند إيجاد محلول في مادة كيميائية مركبة مثل الجيلاتين مثلاً ، فإن لا هذا المحلول يمكن أن يكون شفافاً تماماً ، ولكن يستعصى عليه أن يمر من خلال ورق الترشيح . وينسب البيوكيميائون Biochemists هذه الظاهرة إلى حقيقة أن الدقائق التي تتكون منها مثل هذه المادة تترتب في جموع و فرق ، إذا قورنت بالدقائق التي تتكون منها المواد البسيطة كملح الطعام وغيره مثلاً ، ظهرت فائقة الحجم كبيرة الهيكل . فهم لذلك يفرضون أن تلك الدقائق المركبة لا بد من أن تكون أكبر حجماً من مسام ورق الترشيح أما إذا بلغت هذه الدقائق مبلغاً ما من عظم الحجم ، لم يصبح المحلول شفافاً تماماً ، بل يظهر قاتماً قليلاً . وهنا يصعب علينا أن ندعو مثل هذا التركيب المزجى محلولاً ، لهذا يطلق عليه اسم « مستحلب » — Emulsion — اصطلاحاً . ومن أجل هذا يفرض أن المادة الحية شيء شبيه بهذا المحلول الكثيف ، وفي بعض الحالات شيء شبيه بالمستحلب . ولكن من أى نوع من المواد يتكون ذلك « المركب » الذي قد ينحل في الماء حيناً ، وقد يبقى حافظاً لكيانه حيناً آخر ؟ وحتى الآن لم يستطع أحد أن يجيب على هذا السؤال جواباً شافياً . لذا كلما بدأ بتحليل المادة الحية نقتلها ، وبهذا تبني نتائجنا دائماً على ما توحى به أينا تجارينا في تركيب المادة الميتة ، لافي تركيب المادة الحية .

ولكن يحق لنا أن نفرض أن المادة الحية عند ما تقتل بزيادة درجة الحرارة عليها برفق ، لا يتغير تركيبها تغيراً كبيراً . وهي تحت تأثير هذه الحالة تنتج ما نسميه « البروتيد » تلك المادة التي تكون كما علمنا من قبل ، عنصراً أساسياً من عناصر الغذاء للحيوانات . فاذا عالجنا البروتيد بمحلولات الملح وغلبها في الأحماض المخففة بالماء ، انقسم إلى مواد أكثر منه بساطة ، وباستمرارنا على معالجة أجزائه المنحلة بهذه الطريقة ، نحصل في النهاية على مركبات بسيطة لدى قياسها بالبروتيد ، بحيث يمكننا أن نحقق تركيبها الكيميائي . وهذه المركبات تحتوى على الكربون والهيدروجين والنيتروجين والأكسجين وجميعها من الفصيلة التي تسمى « أحماض الأمينو » أو « الأحماض الأمينوية »

ان أكبر ما يختص به حمض من الصفات ، قدرته على الامتزاج بنوع آخر من مركب كيموى يقال له « القاعدة » — Base — ليكون مركباً مستقلاً يدعى المالح Salt فيكون الحمض فى هذه الحالة اشبه بيد يمكن أن تشد يداً أخرى يرسل بها مركب كيموى آخر

ان أى حمض من أحماض الامينو يكون حمضاً وفى الوقوف ذاته « قاعدة » . أو بالاحرى حمض « ذو يدين » يد حمضية يمكن بها أن يجذب اليه قاعدة ما ، ويد قاعدية يمكن بها أن يجذب حمضاً ما . والقاعدة التى يتحد بها يمكن أن تكون جزءاً من حمض تابع لحمض أمينوى آخر . وعلى هذا النسق نرى أن أحماض الامينو يمكن أن يربط بعضها إلى بعض فى سلاسل طويلة ، وأنه عندما ينحل البروتيد بغليه مع الاحماض ، فان كل ما يحدث إذ ذاك يكون عبارة عن انفصام تلك الحلقات التى تربط السلسلة الواحدة مع الاخرى

هنا نقول بان حمضاً من الاحماض قد يكون ثنائى القاعدة أو ثلاثيها ومعنى هذا أنه يكون له يدين أو ثلاث أيد حمضية ، بدلا من يد واحدة ، وبهذا نجد أن هنالك احتمالات كثيرة لحدوث مضاعفات لا اعداد لها فى تركيب تلك الاخلاط التى تنتج عن احماض الامينو . غير أننا نعرف أن البروتيد يحتوى على الكبريت فضلا عن العناصر الأربعة التى سميناهما من قبل : اى الكربون والهيدروجين والنيتروجين والاكسجين . وعلى هذا يتحتم أن يوجد مجموع يحتوى على الكبريت بحيث يتصل من ناحية بسلسلة حمض الامينو . بيد أن المعروف أيضاً أن الكروماتين عبارة عن مركب من البروتيد يلتئم من حول حمض رئيسى ، هو بذاته عبارة عن مركب من حمض الفوسفوريك .

ولا حاجة بنا إلى متابعة الكلام فى هذا الموضوع لاكثر مما اتينا به . فقد ذكرنا ما فيه الكفاية لنظهر للباحث ان المادة الحية اذ هى لا تفرق فى التركيب عن البروتيد الميت بفروق ذات بال ، وما دام الواقع أن البروتيد انما يتكون من سلاسل حمض الامينو الباهظة الحلقات ، فهنا نحصل على نتيجة مؤداها ان امكان حدوث تغاير فى سلسلة حمض الامينو كاف لتعديل هذه الظواهر فى مجموعها ، ولو أن كل نوع من انواع الحيوانات والنباتات المختلفة يختص بضرب بعينه من ضروب المادة الحية .

إلى هذا الحد انتهى جهد الواضعين لنظريات البيوكيمياء في تراكيب المادة الحية . غير أن تحقيق هذه النظرية في كل تفصيلها بالامتحان يحتاج إلى ازمان طويلة تنفق في المكوف على الاختبار والتجربة ، ومن طريق الاختبار والتجربة وحدهما والمكوف عليهما ، يمكن تحقيقها تحقيقاً فاصلاً . اما إلى الإثبات واما إلى النفي . على أن أوفق طريق لتحقيق صحتها هو النجاح في بناء البروتيد من مواد غير حية بين جدران المعمل . ولقد خطا العلم في هذه السبيل بضع خطوات ، ولكنها سبيل كثيرة التعاريج مشعبة النواحي ، وماخطا فيها باحث خطوة حتى أخذ بكثرة شعبها ، فخار في أيها يتابع السير ليجلو عن الحقيقة الحجاب .

حرية الفكر

ونشر الدعوة الحكومية

محاضرة لبرترند رسل (١)

أوقف « مونكيور كونوى » الذى نحتفل اليوم بذكراه ، حياته على خدمة مبدأين عظيمين « حرية الفكر » و « الحرية الشخصية » . ومنذ وفاته ربح العالم شيئاً من الحرية وفقد منها شيئاً أيضاً . وإذا لم يقض الرأى العام على ما استجد من أنواع الضغط ، فسنجد أنفسنا بعد مائة عام أقل حرية مما نحن الآن . ويجدر بنا قبل الدخول فى الموضوع توضيح مانعنيه « بحرية الفكر » لأن لهذا الاصلاح معنيين أحدهما ضيق ينحصر فى أنه « الرأى الذى لا يتقيد بالتقاليد الدينية » : فخر الرأى هو غير المسيحي أو البوذي أو المسلم أو التابع لاية هيئة تبلم بصحة معتقد موروث . وحر الفكر فى نظر الأوروبيين هو الذى لا يسلم بوجود الله . ولكن البوذيين لا يرون فى عدم التسليم بهذا الرأى شيئاً جديداً . وحتى هذا المعنى الضيق لحرية الفكر ليس بقليل الأهمية . وأنا شخصياً مخالف لكل الأديان المعروفة وبودى لو محيت كلها من الوجود اذ لا أرى

(١) يعتبر برترند رسل من أكبر مفكري الانجليز فى العصر الحاضر وفلاسفتهم الاعلام .

لوجودها فائدة تعادل الاضرار التي تنشأ عنها . أجل . لا انكار أنه قد نشأ عن وجودها بعض الفائدة في أزمنة وأمكنة مخصوصة ، ولكن كان ذلك في عهد الفطرة حين كان العقل في دور طفولته . وأما الآن فنحن بعيدون عن ذلك العهد وقد بلغنا رشدنا .



برترند رسل

أما معنى حرية الفكر الاوسع فعظيم الخطر . وكان هم الأديان الدائم محصوراً في الضغط على هذا النوع من الحرية الذي لا يتيسر تعريفه ، كالمعنى الآخر ، بكلمتين اثنتين . فلا حرية الا بعد ازالة الضغط . والضغط إما ان يكون ظاهراً أو غير ظاهر . فحرية الفكر ولا شك تمتنع اذا وجدت عقوبات تفرض على من يعتقد أو

لا يعتقد بأشياء معينة . إن أغاب الأمم تضع قيوداً لحرية الفكر . فمثلاً يعد التجديف في إنجلترا مخالفاً للقانون . وكذلك الجهر بعدم الاعتراف بالمسيحية . ذلك في نفس الوقت الذي يعاقب فيه كل من يجد في نشر تعاليم المسيحية عملاً بمبدأ مقاومة الشر بالشر . إذن فالقانون الانجليزي يعاقب على عدم التسليم بصحة تعاليم المسيح في نفس الوقت الذي يعاقب فيه على نشر هذه التعاليم ! ؟

أما الولايات المتحدة فلا يتيسر دخولها الا للذين يعترفون بأنهم لا يشايعون فكرة استعمال القوة ، ولا يوافقون على نظرية تعدد الزوجات . وكذلك تجد ان المهاجر مجبر على عدم اعتناق المذهب الاشتراكي اذا استوطن تلك البلاد . ويعد عدم الاعتراف بالوهية الميكادو خروجاً على القانون الياباني . وبهذا لا يتيسر للمسلم أو البلشي أو المسيحي الطوائف حول الأرض ، الا اذا لزم الصمت وانكر حقائق يرى أن ذكرها جوهرى في اعتقاده . فاذا لم يفعل عرض نفسه للعقاب الذي ينفذ بدقة على ركاب الدرجات الرخيصة في البواخر ووسطى النقل الأخرى . وأما الأغنياء من السائحين فيطلب منهم بأدب وتواضع الابتعاد عن ذكر مايجول

في ادمغتهم حتى لا ينزعج الوطنيون . ورغمما تزعم الامم باطلا من حمايتها لحرية الفكر ، لا توجد لسوء الحظ أمة واحدة من مجموع أمم الارض تركت الناس أحراراً يقولون مايجول في رؤوسهم بلا خوف أو وجل .

تمنع الحكومات نشر الافكار التي تنزعج لها الاغلبية على زعم انها مضرّة وغير ملائمة لمقتضى الحال ولكن هذه الاسباب هي عين الاسباب التي كان يتمسك بهادعاة محاكم التفتيش الرهيبة التي رأت في البروتستانتية ما زراه اليوم في الشيوعية ولست أقصدهم هذا الدفاع عن أيهما أو كليهما . ولقد أصبح ضغط القوانين في العصر الحاضر على حرية الفكر أقل الاخطار التي نتصدي لها . لان الضغط الاقتصادي قد أصبح أشد من القوانين خطراً . أضف إلى ذلك ما دبر من الحملات الشديدة



ميكادو اليابان السابق

التي أريد بها تشويه الحقائق فان لها أثراً كبيراً . تنعدم حرية الفكر اذا تعرض صاحب الفكرة للحرمان من العمل . وكذلك اذا سهل على الناس الحصول على بيانات معززة لوجهة من النظر بعينها ، في حين يتعذر عليهم الوصول الى البيانات التي تزكي وجهة النظر المخالفة . ويسود هذان التأثيران في جميع أقطار العالم التي أعرفها ، اللهم الا بلاد الصين التي تعد بحق معقل الحرية الاخير .

ولا يكون الفكر حراً الا اذا ترك له مجال التنازع مع غيره من الافكار مفتوحاً ، حتى يدلى ببيناته دون معارضة أو معاضدة قانونية أو مالية . ولكن الوصول الى هذا غير متيسر لعدة أسباب . ومع كل هذا فلا يجب أن يثنينا هذا الامر عن العمل للاقتراب جهداً من الكمال .

حدثت لي حوادث ثلاث أثبتتها هنا لا تظهر كيف ان انجلترا رغبة منها في شد أزر المسيحية تكيل لا بنائها بكيلين . ولا تظهر أيضاً بعض ما يتعرض له الناس من المخاطر نتيجة للاعتقاد السائد بأن « العقل ليس كنفوا لتفهم الوحي » وقعت أولى هذه الحوادث في بدء حياتي . فان أبى كان من أحرار الفكر ، وقد توفي وأنا ابن ثلاث سنين موصياً أن أشب بعيداً عن الخرافات ، وعين لي قيمين من أتباع حرية الفكر . فلم تلتفت المحاكم لوصيته وقررت تربيتي على أصول الدين المسيحي . غير أن النتيجة قد صارت لحسن الحظ الى عكس ما رمت اليه المحاكم . فانها على كل حال عملت لأجل تعزيز وجهة نظر مخصوصة . ولو كان والدي قد أوصى بأن أنشأ تابعاً لأية كنيسة لما عارض القضاء في تنفيذ مشيئته . وليس لهذا من معنى الا أن لا والد أن يوصي بتربية ابنه على أى نسق خرافي يشاءه ، ولكن غير مسموح له أن يبعد ولده عن النشوء في وسط الخرافات والاهام !!!

أما ثمانية الحوادث فوقعت عام ١٩١٠ حيث رشحت نفسي لعضوية البرلمان عن الاحرار وكنت على وشك الفوز ، واذا بمن يسألني أن أعد بالذهاب الى الكنيسة في بعض الاوقات . ولما رفضت انتخب شخص غيرى هو الآن من أعضاء الوزارة .

أما الحادثة الاخيرة فهي ان جامعة كبرج دعنتي لأحاضر في كلية التثليث ، ولكن لم تعينني رفيقاً . والفرق بين المحاضر والرفيق هو أن للاخير صوتاً في ادارة المعهد ولا يصح فصله الا لأسباب وجيهة . وكان الاعتراض من جهة الاساتذة الدينيين الذين خافوا رجحان كفة اللادينيين Deists . أما الذى نتج عن هذا التعيين فهو فصلى عن التدريس عند ما بسطت وجهة نظري في الحرب سنة ١٩١٦ . على أننى لم أعد الى منصبى هذا الا بعد أن شبعتم شهوة الناس للفتك ، وكنت نزوهم لادماء .

هذه أمثال مختلفة من العوائق التى تعترض حرية الفكر في انجلترا الحديثة . ومن السهل على أتباع حرية الفكر في انجلترا أن يأتوا بكثير منها وبما هو أشد مما ذكرت أخذاً بالالباب . ولذلك تجد أن الكثيرين من اللادينيين لا يجراؤن على الجهر بما يرون من رأى اذا خالف ما يعتقد به السواد من الناس . وليست حرية الفكر الدينية وحدها هى التى تلاقى مثل هذه العقبات ! فان

استحسان الشخص للبشفية أو الاباحية مثلاً يسبب له متاعب لا تطاق . والادهي من كل هذا ان الحصول على بينات أو براهين تؤيد هذه الافكار يكاد يعد هنا من المستحيلات . بيد أنك تجد الحال على مثل ذلك تماماً في روسيا حيث يمنع على الناس العثور على بينات تضاد نظريات الاتحاد والبشفية والاباحية.

فكما يوجد في بلاد الروس متعصبون يسمون بصحة نظريات لا تزال في دور البحث تسليماً أعمى، نجد في بقية العالم متعصبين يسمون بصحة ما يناقض اعتقاد هؤلاء تسليماً لا يحتمل الجدال أو الشك . فذاك التعصب وهذا التسليم هما منشأ الحروب وسوء التفاهم وأصل الاضطهادات التي يتذرع بها كل من الفريقين

دافع وليم جيمس عن
نظرية «الميل الى الاعتقاد»
وأنا بدوري أدافع عن
نظرية «الميل الى الشك»
لأن كل ما نعتقده يتضمن
إبهاماً وأخطاءً . ولا يوجد
اعتقاد تام الصحة على
إطلاق القول فيجب علينا
إذن أن نصفي الى بينات
الغير المثبتة من الوقائع
التي نتجادل فيها ، ولكي
نكون على استعداد تام
لترك ما ثبت خطؤه . هذه
هي الاسس التي قامت عليها
العلوم . فكل العلماء



وليم جيمس

والمشتغلين بالعلم على استعداد تام للقول بأن ما يعلمونه مفروض للاصلاح والتحويل على مقتضى ما يجد من مناحي النظر أو الاستكشاف وان أقرب النظريات الى الصحة أصلحها للتعبير عن أموراً أكثر . وكل الافكار قابلة للشك بالضرورة .

أما السياسة والدين فعلى الضد من العلم يغافبان كل من يحاول إظهار الحقيقة بالسجن والاضطهاد والحرب ، ويمنعاننا عن سماع بعض البينات

واسماع ما نراه من الآراء على أننا لو حكمت العقل لزالّت تسعة أعشار المصائب الموجودة ، ولتعذر وقوع الحروب ، لأنّه من الهين على من يحكم عقله ان يرى خطأ كل من الحزبين المتنازعين . أما الاضطهاد فلا محالة يحى أثره حينما يصبح هم التربية محصوراً فى العمل لما يؤدى إلى توسيع الافهام لتضييقها . اذ ذاك يقوم بالاھمال أقدر الناس عليها ، لا أكثرهم تملقاً لرجال المسيطرين

ان للطبع العلمى جلالاته حينما استقبل أهله نظرية النسبية . فهذا اينشتين اليهودى — الالماني — السويسرى ، والذي عينته الحكومة الالمانية أستاذاً للمباحث فى أوائل أيام الحرب . طرح نظريته للبحث واثبتتها البعثة العلمیة البريطانية حين رصدت كسوف الشمس سنة ١٩١٩ . ومع أن نظرية النسبية قلبت أساس علم الطبيعة رأساً على عقب ، فاننا لم نر من العلماء الا اتم استعداد لقبولها عند ما ثبتت صحتها . هذا لانه لم يدع أحدهم ، ولا اينشتين نفسه — بان كلمة الفصل قد قيلت فى هذا الصدد ولم يزعم زاعم بان اينشتين قد أقام بناء غير قابل للهدم أبد الدهر . ذلك لشعورهم بان أمامهم ما لا يزال حله متعذراً . فالنظرية لا تزال معرضة للتحوير والتكييف ، وقبول العلماء لها غير مقطوع به . هذه هى روح العلم وصبغته

أما اذا كانت هذه النظرية نظرية دينية أو سياسية أذن لاستشم منها الانجليز ريح الجرمانية ، ومعارضو اليهود مبادئ الصهيونية ، والوطنيون طريق الهروب من الخدمة العسكرية . ولقام علماء النسق القديم الى ادارة البوليس يلحون على السلطات لكي تحظر تداول ما ينشر من براهينها المثبتة لصحتها ، ولتفصل عن مقاعد التدريس فى الجامعات المستمسكة بالقديم كل من أخذ من الاسانذة بالفكرة الجديدة . واذا فرض وكان اينشتين قد استمكن من التحكم فى ناصية شعب منحط غير ذى حضارة ، اذن لفعل جهده ليحظر على الناس قراءة كل ما يخالف نظريته من التعاليم ولعدت نظريته بديهة مقطوع بصحتها دون موازنة بين ما لها وما عليها بين البيّنات . أما اذا أريد الموازنة بين المقتضيات فى ميدان افسح ، فهناك الساحة التى تفصل فيها المدافع والبنادق فى صحة ما يدعيه كل من الحزبين . هذه هى النتيجة المنطقية لنظرية وليم جيمس القائلة بحاجتنا « للاعتقاد » ولكنى أقول ، كما قلت سابقاً ، اننا فى حاجة الى الشك .

إذا سلمنا بحاجتنا الى الشك العقلي ، وجب أن نبحث عن السبب في انتشار
المعتقدات التي لا يسلم العقل بصحتها . وأرى أن لهذا سببان : الاول ماورثنا من
الاساطير عن أسلافنا . والثاني ميلنا الى سرعة تصديق مايقال ، كما هي الطبيعة
البشرية . ونحن في ذلك نهب لثلاثة مؤثرات مختلفة كلها ذات خطر . أولها التربية ،
وثانيها نشر الدعاية ، وثالثها الضغط الاقتصادي . ولنبدأ ببحث هذه العوامل
كل على حدة

(١) التربية : تحتكر حكومات كل الأمم المتمدينة نظم التعليم الابتدائي .
ومن نكد الديننا انك تجد أن الدين يوكل اليهم أمر التعليم مسلمين بخطأ بعض
مايلقن للطلاب ، بيد أن كل شخص مستقل الرأي يميل إلى الشك في صحة البعض
الآخر . ولناخذ علم التاريخ مثلاً . فأن كل أمة تحشو كتبها المدرسية بالفخار
الكاذب ، في حين أن الأمم ليست كالأفراد ، اذ يجعلون همهم عند ما يكتبون تاريخهم
محصوراً في تورية أعمالهم المعظمى ، بل على الضد من هذا تجد أن الأمم لا تترك من
واسطة للمباهاة الكاذبة الاسطرها .

كانت المدارس في عهد تلمذتي تلقننا بان فرنسا أمة مجرمة وأن المانيا أمة
فاضلة . أما ماتعلم المدارس اليوم فمخالف تماماً لما كان يعلم اذ ذاك وكلا القولين
بعيد عن الحقيقة . وتقرأ في الكتب الالمانية ما يفيد أن انكسار ولنجتون
كان محققاً لو لم ينجده بلوخر الالماني . في حين تجب أن الكتب الانكليزية تضعف
جهداً من تأثير هذه النجدة . وبالضرورة يعلم كل ممن كتب لطلاب الامتين
انهم لا يقررون الحقيقة فيما يكتبون وكذلك انقلبت كتب المدارس الامريكية
تماماً عما كانت عليه قبل الحرب فان تعاليمها كانت مسوقة ضد بريطانيا فاخذت
الآن تقرر خلاف ماقررت وتعلم ضد ماعلمت . اذن لم يكن هناك رغبة في الوصول
إلى الحقيقة .

أما المدارس الامريكية فكل همها في الوقت الحاضر محصور في أن تخلق
من المتعلم رجلاً اميريكيًا صميماً . فهل يليق بالالمانى أو الاميريكي أو اليابانى الصميم
أن يكون انساناً مزيفاً ؟ ان الاميريكي الصميم ، رجلاً كان أم امرأة ، هو الذى
يؤمن بفكرة أن اميريكا أحسن بلاد العالم وأرقاها ، وأن الواجب عليه أن ينصرها
في أية من الخلافات الطارئة أو المشاجرات الطاحنة . وقد يجوز أن يكون هذا

الادعاء صحيحاً ، فاذا كان كذلك فلا موجب إذن للشجار بين البلدان ، لأنه يجب على كل بلاد العالم الاعتراف بصحة ما يزعمه الأمير يكيون ويعلمونه لأولادهم . في حين أن هذا مضاف للواقع . لأن مثل هذه الادعاءات لا تصدق خارج حدود البلد الواحد .

يعمل دولاب الحكومة في كل بلد ، لسوء الحظ ، على ترغيب الاطفال في الموت دفاعاً عن الاطماع المشثومة ، طائنين أنهم يموتون في سبيل الحق . هذه أمثال من التعاليم التي تفرسها الحكومات ، لا لبث الحقائق ، ولكن لاعداد جماعات تخدم أسيادها الحكام . فمن الصعب علينا تقوية الروح الديموقراطية ، اذا لم تنظم مدارسنا الابتدائية على أسس قوية

وقبل أن أنتهى من كلامي في التربية أسوق مثلاً آخر عن أميركا ، لا لأنها أكثر شرواً من غيرها ، بل لأنها أحدث الامم . وذلك رغبة مني في إظهار الاخطار التي أخذت في التفريخ بدلاً من الاخطار التي أخذت في الزوال . فلا يمكن فتح مدرسة في ولاية نيويورك الا باذن رسمي (حتى المدارس الحرة) ويحول القانون - الذي لا يزال سارياً - دون اعطاء الاذن بها « اذا ظهر ان التعليم فيها سيحرض على قلب الحكومات المنظمة بالقوة أو بالوسائل غير القانونية » . ولم يحدد القانون معنى « الحكومة المنظمة » . ولذا يمكن ان يقيد منطوقه الدعوة الى قلب حكومة القيصر بالقوة ، كما حدث أبان الحرب العظمى . وكذلك يحظر التحيز لكونلتشاك أو دينيكين ضد حكومة السوفيت ، ويعتبر هذا أمراً غير قانوني . ولكن هذا لم يكن المقصود . ولأجل أن تفهم هذا القانون يجب النظر في قانون آخر ظهر في نفس الوقت ينص على ان إجازة التدريس لا تعطى الا لمن « أظهر أنه مخلص ومنطبع لحكومة ولاية نيويورك وللولايات المتحدة » وأن لا تعطى لمن « يدافع - بدون اهتمام بالزمان والمكان - عن نظام حكومة غير حكومة الولاية والولايات المتحدة » وبذلك أوجبت اللجنة التي وضعت هذا القانون على المعلم الذي لا يوافق على النظام الحالي ترك الوظيفة . ومعنى هذا ان الذي لا يظهر استعداداً لمقاومة نظريات التحول الاجتماعي ، يجب ان يعد نفسه غير جدير لاعداد أبناء الامة للوطنية الصالحة . فالمسيح ووشنجتون يعدان - حسب هذا القانون - غير صالحين لتربية النشء . فاذا ذهب المسيح مثلاً الى ولاية

نيويورك قائلاً « دعوا الاولاد يأتون الى » لقال له مدير التعليم « لا أسمح لك بالاولاد ياسيدى لانك تدعو الى مملكة السماء فى حين أن نظام بلادنا والله الحمد « جمهورى » و « مملكة السماء لها نظام دون شك مخالف لنظام ولاية نيويورك فانت راغب فى تغييره » فاذا لم يفعل وزير المعارف ذلك اخل بواجب وظيفته . لنسلم الآن جدلاً بأن حكومة نيويورك ونظامها الاجتماعى هما أحسن من مثلهما فى أى مكان آخر على ظهر البسيطة . فهل يمنع هذا من القول بأنهما قابلين للتأصلاح ؟ وهل من يرى هذا رأى يكون غير صالح للتدريس فى مدارس الولاية ؟ أليس معنى هذا ان المدرس مخير بين ان يكون منافقاً أو مغفلاً ؟ منشأ الخطر هو احتكار الحكومة لنظم التعليم . وهو خطر لا يختلف عن الخطر الناتج عن أنواع الاحتكارات الاخرى . وهذا الاحتكار عبارة عن حق غرس أشياء مخصوصة فى أذهان الطلبة ، ومنع الغير عن توصيل أشياء مخالفة لها . أليس هذا مثل احتكار بيع صنف مخصوص للناس ؟

وقد يقول قائل أنه ليس من السهل التفريق بين الحكومة والامة فى البلد الديموقراطى . ولكننا نجد بعد التفكير ان الحكومة لا تخرج عن ان تكون جماعة من الموظفين الذين يتحصلون على دخل كاف مادامت الاحوال تسير على وتيرة واحدة ، فيجعلون همهم محصوراً فى العمل على زيادة نفوذهم ، فينتهزون الفرص السانحة - كتحمس الناس للحرب - لتأسيس نظم التفتيش على صغار الموظفين ، ويحكمون بالموت جوعاً على من يخالف أفكارهم من رؤوسهم . إن أشد النكبات التى تنتج عن أعمالهم هذه هو سعيهم لوضع حد للتقدم وللحرية ولأعمال الفكر . هذا ما ينتج من وضع نظم التعليم الابتدائى تحت رحمة هيئة واحدة . ان اقلنا من أهمية الدين نتج عن تسامحنا فيه . ولكن لم نلبث حتى قامت لدينا أنواع من الاضطهادات أشد هولاً مما سبقها الا هى الاضطهادات السياسية والاقتصادية . ولم تقتصر هذه الاضطهادات على البلدان الغربية لان اضطهاد الافكار فى روسيا أشد فظاعة مما هو عليه فى البلدان الرأسمالية . فقد مات الشاعر الكبير الكسندر بلوك الروسى لجهله التوفيق بين النظام والشيوعية عندما طلب منه تعليم الشعر على القواعد الماركسية . وقد بثنى شكواه من الافراط فى التدقيق عليه للتدريس حسب النسق المطلوب وأبان أنه باذل جهده للوصول

الى رغبتهم فراراً بنفسه من الموت جوراً
كذلك تمنع روسيا نشر مايرمى إلى مخالفة مبادئ عصرها الجديد منذ انتشر
فيها الحكم الشيوعي ، مثلما تمنع نحن بالضبط نشر مبادئ الشيوعية في بلادنا .
فنادام الناس متعصبين لا فكارهم السياسية استحال حرية الفكر ، ومتى استحال
وقع ما هو حادث من الفوضى في روسيا كنتيجة لحاجة الناس لهذه الحرية اذن
فنحن في حاجة الى قليل من الشك يخلصنا من هذه البلايا والكوارث المجتاحة .
ان من بيدهم نظم التربية لا يعملون على نشرها . بل بالعكس يحاولون ملء
الرؤوس فقط ، ولا يهتمون بالفهم . مع أن للتربية مقصدين احدهما علم مقرر هو
عبارة عن القراء والكتابة واللغات والرياضيات الخ وثانيهما خلق أساليب فكرية
يتمكن الناس بها من المعرفة ومن الاستنتاج لانفسهم بطريق العقل . ويسمى
المقصد الاول علماً والثاني فهماً . وفائدة العلم مسلم بها من الوجهتين العملية والنظرية
لأن ايجاد أمة متحضرة على النمط الحديث مرهون على وجود مجموع متعلم . وأما
الفهم فلا يسمون الا بفائدته النظرية فقط لانه من غير المرغوب فيه أن يفكر
الناس لانفسهم . لان حكم المفكرين واخضاعهم عمل شاق .
قال أفلاطون « الاوصياء وحدهم هم الذين يجب أن يفكروا . أما البقية
فعليهم اتباع قادتهم مثل قطيع من الغنم » هذه هي الفكرة التي تسود في عهد
الديموقراطية السياسية في هذا العصر والتي أفسدت نظم التربية الوطنية
وأسبق الأمم في التعليم على أحدث الطرق ، مع البعد عن تجويد الفهم ، أمة
اليابان . فان نظام التعليم الابتدائي فيها على ما أعلم ، قد وصل الى درجة تدعو الى
الاعجاب ولكننا نجد « عبادة الميكادو » قد قويت الآن هناك عما كانت عليه من
قبل — راجع كتاب « اختراع دين جديد » لشامبرلين — ومعني هذا أن نشر
الخرافات قد أصبح من أعمال المدارس في تلك الاقطار . ونحن اذا رأينا سخف
ما يعلمه اليابانيون فذلك لبعدها عن جو عبادة الميكادو . ولكننا لا نرى سخافاتنا
لأنها تظهر لنا طبيعية معقولة لعدم نظرنا فيها بالمنظار الحقيقي الذي ننظر به الى
اساطير مملكة الشمس المشرقة وترهاتها . وفي ظني أنه يتيسر للياباني الذي يزور
مدارسنا أن يقول فيها مثلما نقول عن مدارس بلاده ، ولرأي عندنا ما هو أسخف
من عبادة الميكادو .

ليس المقصود هو البحث عن الدواء في الوقت الحاضر بل تشخيص الداء لا غير، باظهار حالة التناقض التي أصبحت فيها التربية في بلادنا، والعثرات التي تقف في طريق الفهم وحرية الفكر الناتجة عن الاحتكار الحكومي

(٢) نشر الدعوة: ان مدارسنا ولو أنها تخرج رجالاً قادرين على القراءة، الا أنهم يعجزون غالباً عن الفهم، وعن تكوين فكرة مستقلة. ولذا تجدهم يعتقدون بصحة أفكار سخيفة مثل «حبوب الدكتور فلان تشفى جميع الامراض» و «الالمان يأكلون الجثث»

تقوم حركة نشر الدعوة التي يزكيها الساسة في الوقت الحاضر على الاعلانات وبهذا قدمت لعلماء النفس بخدمة جليلة، إذ كان يظن أغلبهم انه من المتعذر على شخص اقناع الآخرين بجودة بضائعه بلا شيء غير ترديده لفظي «بضائعي جيدة» ولكن الاختبارات أثبتت خطأ هذا الظن

تصور اني واقف في مكان عموي أصبح في الناس قائلاً «أنا أكثركم تواضعاً» فهم بلا شك يضحكون مني ويهزأون بي ولكن بقليل من المال يساعد على نشر ادعائي هذا في مركبات الترام ولوحات السينما وعلى جانبي طريق السكة الحديدية يعتقد الناس بصحة ما أقول. وكذلك لو ذهبت الى أحد التجار وقلت له «انظر هذا مزاحمك المقابل لك يعمل على تعطيل رزقك فترك عملك واقتله قبل أن يتسبب في خرابك» فانه لا يخطر بباله من شيء سوى أن بي مساً من الجنون. ومع هذا فالحكومات تقول هذا وتؤيده بدق الطبول، فيتخمس التجار ولكن لا يلبثون الا قليلاً حتى يشعروا أن حماسهم قد سبب بوار تجارتهم. فنشر الدعوة على الطرق الحديثة اداة تخلق الحكومات الراقية بواسطتها ما يسمى «الفكرة الديموقراطية»

ان لنشر الدعوة الحديثة شران يختلفان عن بعضها تماماً. أحدهما مساعدتها على نشر المعتقدات غير المعقولة. وثانيهما مساعدة صاحب المال والقوة على من هو دونه ثروة ونفوذاً. وأنا لا أميل إلى تصديق أن البروباجندا تؤثر في المواطن دون العقل. فهذا الادعاء مبالغ فيه خصوصاً وان الفصل بين العاطفة والعقل ليس بالامر الهين. فان من أسهل الامور على العقول استعمال بيئة معقولة في كل موضوع أو بحث. وما دام لكل موضوع وجهات نظر تعزز كل

منها بينات ، فلا لزوم إذن للتمويه على الناس بالباطل ، لأنه معرض للتزييف .
على العكس من البينة فإنها تستدعي اهتمام الناس ، وتستدعي انتباههم .

ان كباتي « صابون كذا » تجذب الناس للصنف . مع أنهما لا تفيدان أى معنى خلاف اسم نوع من الصابون . فلو استبدلنا اللفظتين بكلمتي « حزب العمال » لصوت أغلب الناس له دون أن يطلب منهم ذلك .

لكل وجهة من النظر عدة بينات . ولكن لسوء الحظ ليست الوجهة الاكثر بينات هي الناجحة ، بل الاكثر انتشاراً . فلو صرف شخص مليوناً من الجنيهات في النشر عن بينات تؤيد وجهة نظره ، وبذل مناصره نصف القيمة لتعزيز ما يراه ، لمكث عدد المقتنعين بصحة رأى الاول لانه تيسر له العثور على بينات تؤيد رأيه أكثر من البينات التي تيسر لمناظره الحصول عليها . وهكذا يسهل على الحكومة بالتفوق على خصومها دائماً باحتكارها وسائل نشر الدعوة

لا تؤثر نشر الدعوة في غير الراغبين في التفكير مستقلين بأنفسهم لا غير ، بل بان أثرها يزداد بازدياد المال والقوة . وهكذا تمتنع المساواة بين الافكار . في حين أن من أوجب الواجبات أن نسمى دائماً لتحقيق هذه المساواة ، اذا أردنا بأن نحقق حرية الفكر عملياً . وبما أنه ليس من المنتظر سن القوانين التي تحمي حرية الفكر وجب علينا أن نوجه عنايتنا الى التربية والعمل على تهيئة رأى عام قادر على النقد وتمحيص الحقائق .

(٣) الضغط الاقتصادي : سبق لى أن بحثت بضعة أوجه من هذا النوع .

غير أنى أبحثه الآن بوجه عام . فهو خطر يتزايد شره . ولذا وجبت علينا مقاومته بكل الطرق الممكنة . ففي روسيا السوفيتية يسهل على الحكومة القضاء جوعاً على كل من لا تروق لها آراؤه . وقد بانت مقدرتها على هذا الفعل في الوقت الحاضر أشد مما كانت عليه من قبل . ولا تتقدمنا روسيا كثيراً في مقدرتها هذه فقد طردت فرنسا مثلاً مدرسين من مناصبهم لأنهم ذكروا « دروفس » بالخير وقت محاكمته ، ثم انقلبت الحال وأصبح المدرسون معرضين للفصل اذا انتقدوه في الوقت الحالى . وأما في أميركا فلا يجد الاستاذ مهما بلغ مقامه معهداً يقبل خدمته اذا فكر في انتقاد شركة « استاندرداويل » لان رؤساء الجامعات أخذوا يفكرون بأن يؤملون في أن ينالوا هبة من المستر روكفلر . وفي أميركا نجد اشتراكيين

يتعذر عليهم ايجاد أعمال يتعيشون منها .

ان احتكار الصناعة يقلل عدد أصحاب الاعمال وبذلك يصبح من السهل حفظ قوائم سوداء سرية بأسماء العمال غير المرغوب فيهم . وهكذا يتيسر منعهم من العمل وتركهم قريسة لهجمات الجوع القاتل . فنظام الاحتكار الامريكى والحالة هذه لا يقل فى شره عن نظام الاشتراكية الروسية . وفى العادة أن الانسان يستوى عنده الضغط المسبب من شركة احتكار أو من حكومة ، ما دامت النتيجة التى تقع عليه واحدة .

يجب على الراغب فى استيطان أمريكا التى هى أرقى المراكز الصناعية أو فى غيرها من الاقطار التى تقل عنها خطراً ، اذا أمل أن يعيش بسلام ، أن يعتمد على مناجزة أفكار بعض رجال ضخام لهم آراء دينية أو أدبية أو سياسية يفرضون على أتباعهم الاعتقاد بها ولو فى الظاهرة على الأقل . لانه لو تظاهر مستخدم بالانحراف قليلا عن التعاليم المسيحية مثلاً ، أو توسع فى فهم رابطة الزواج ، أو اعترض على سلطة الشركات الكبيرة ، فاميريكيا ليست بالمحل المأمون له

فالضغط على حرية الفكر موجود فى جميع الاقطار ذوات النظم الاقتصادية . ولذا أصبح الدفاع عن الحرية فى النظام الحديث أشد صعوبة مما كانت عليه الحال فى القرن التاسع عشر ، قرن المنافسات التجارية . ولذا وجب الاقلاع عن تطبيق النظريات القديمة التى نشأت فى عهد الطفولة الصناعية على حاجات أيامنا هذه ، اذا كان لنا رغبة فى الدفاع عن حرية الفكر بصدق واخلاص .

وهنا مبدأ أن اذا اتبعنا انحلت كل المسائل الاجتماعية . وأول المبدأين هو أن يكون المرمى الاسمى للتربية تدريب الناس على عدم التسليم بصحة رأى إلا اذا قدمت بينات تكفى لاثبات صحته : والثانى أن لا تعطى المراكز إلا لمن هم أحق بها من غيرهم . ولنبدأ الآن بمناقشة المبدأ الثانى أولاً

ان الاهتمام ببحث أفكار الانسان الدينية والاخلاقية والسياسية قبل اعطائه عملاً ، اضطهاد قاس سيأتى وقت نشمر فيه بوطاته كما سبق وشعر الناس بوطأة ديوان التفتيش . أفليس من الغريب انه على الرغم من أن القانون لا يعاقب الناس على ابداء أفكارهم ، نجد انهم دائماً معرضين للموت جوعاً اذا أبدوها يعارض رأى العام فى اصدار حكم يقضى بالموت جوعاً على أى كان ولكن

الناس لا يحركون ساكناً أذهبوا شاهدون العديدين يموتون ببطون خاوية لأنهم لم يتبعوا
تعاليم الكنيسة أو لأنهم أبدوا رأياً سياسياً مخالفاً للرأى المسلم بصحته أو أنهم
يؤمنون بالوثنية أو المورمونية أو الشيوعية المتطرفة أو الأباحية !! كل هذا إرضاء
لعاطفة التشفي من «الاشرار» الذين لا يستحقون أن «يعطوا عملاً» أليس معنى الامتناع
عن اعطاء شخص عملاً في الاوساط الصناعية هو الحكم على الشخص بالموت
جوعاً . وأنه لا قفطع أنواع الموت ؟ أمن اضطهاد أعنف من هذا ؟ يجب أن نقلع
عن منع أى شخص كان عن مزاولة عمل من أجل أفكاره . لان كلا منا سيكون
يوماً ما ضمن أقلية . فيجب علينا القضاء على استبداد الاغلبية أيا كانت . وهو
أمر لا يمكن القيام به الا باتحاد الناس .

على أن فى انتشار الاشتراكية احراج أكثر للحالة لأنه يوجد فى الوقت
الحالى مديرو أشغال كثيرون بينهم بعض شواذ . فاذا كبرت الانظمة الصناعية
نقص عدد المديرين ونقص بنقصهم عدداً أصحاب الآراء المستقلة . وعندئذ يرجع
عهد المذابح والاضطهادات وتضرب حرية الفكر ضربة لا قيامة لها منها .
وبقدر ما يزداد تسليم الناس بصحة رأى يزداد اضطهادهم للمخالفين له . إذن
وجب أن نعلم الناس أن يتركوا مجالا للشك فى اعتقادهم . وهذا هو المبدأ الذى
أريد الدفاع عنه .

واذا أردنا أن نرى روح التسامح شاملاً لنواحي الارض فلا مندوحة لنا عن
أن نمرن التلاميذ على وزن البيانات وندريبهم على الرفض التام لكل النظريات التى
لا بينة على صحتها . ويكون هذا بانتخاب قطعة من الجرائد كتبت عن حادثة
وقعت فى الماضى وسببت حركة مهمة ، ثم يقرأ المدرس ما قيل فيها ، ما لها وما عليها ،
ويستخرج لهم حقائق من الوجهين لكى يتعلموا القراءة خلال السطور ، فيعلموا
ان ما ينشر بالجرائد ليس كل الحقيقة . وهكذا تضعف فى التلاميذ نزعة التسليم
بما يسمعون تسليماً أعمى .

وكذلك يجب تدريس التاريخ على نفس الطريقة . فيقرأ المدرس مثلاً على
تلاميذه تاريخ حروب نابليون ونتائجها بين ١٨١٣ و ١٩١٤ من الجرائد ليروا
كيف دهش أهل باريس من رؤية الحلفاء على أسوار مدينتهم حين كانوا يعتقدون
من قراءة الاخبار كسب نابليون لجميع الوقائع . كذلك يجب مساعدة التلاميذ

على أن يحصوا عدد الاخبار التي قتل فيها تروتسكي لينين ، ليتعلموا الازدراء بالحياة التي لا تفنى . وأيضا يجب أن يعطوا كتابا للتاريخ من الكتب التي تدرس في المعاهد الألمانية ويطلب منهم استنتاج ما ينتظر أن تحويه كتب التاريخ الفرنسية عن الحروب التي ذكر خبر وقوعها بين الامتين . هذا أفيد من تعليم الاطفال نظريات أدبية وغير أدبية ، لان شرور العالم تنتج عن النقص الادبي وعن الحاجة للفهم . أما الوعظ والارشاد فلا فائدة منهما ، بل بالعكس فانهما يزيدان رذيلة الرياء انتشاراً .

أما اصلاح الفهم فيسور بوسائل يعرفها المربون . وأما اذا أردنا أن ننشر الفضائل فالواجب علينا أن نقصر همنا على تنمية الفهم ، لا على تنمية الاخلاق . ان أكبر العوائق أمام الفهم سرعة التصديق . وهي بحق أكبر الشرور التي نعانيها في العصر الحاضر . ولقد زاد انتشارها عن ذي قبل بانتشار القراءة التي هي خير واسطة للمعشور على الاكاذيب التي ينشرها أولو الأمر على صفحات الجرائد وغيرها لاقناع الناس بأشياء مخصوصة

ولو سئلت كيف يجب تطبيق هذين المبدأين (١) اعطاء الاعمال لذوى الكفاءة من غير مراعاة لعقائدهم وأفكارهم (٢) وجعل غرض التربية مداواة مرض سرعة التصديق لكل ما لا تقوم عليه البيئة ، لقلت بأن هذا لن يكون الا بخلق رأى عام متنور وهذا لا يمكن خلقه الا اذا وجد من يريد ذلك . وأما ما يذيعه الاشتراكيون فلا يساعد على ازالة الشرور القائمة . وأما الانقلابات السياسية التي تحدث بين وقت وآخر فلا تخفف الضغط الاقتصادي الذي سيتعاضم إلى أن يودي بحرية الفكر ، اللهم الا اذا لم يشأ الرأى العام ذلك وقام مطالباً بعدم تدخل الرؤساء في أمور رؤوسهم الخاصة

اذا أردنا حرية التربية أمكن الوصول إلى ذلك بحصر مجهود الحكومات في التفتيش والاعانة ، بشرط أن يقتصر التفتيش على طرق التدريس لا غير . ومع كل ذلك فان التعليم لم يخلص بعد من نفوذ الكنائس التي تعمل لنشر اعتقاداتها أكثر مما يتيسر لاصحاب الآراء الحرة عمله لنشر شكوكهم . وعلى كل حال يجب أن لا ينتظر من القانون عمل أكثر من اعداد جو حر وتمهيد السبيل لتربية حرة القصد من هذه المحاضرة هو نشر روح الخلق العلمى الذى يختلف تماماً عما

يسمى بالنتائج العلمية . فالتخلق العلمى يخفف ما تصادفه من الاتعاب فى الحياة .
وأما النتائج العلمية الشبيهة بالميكانيكيات والغازات الخائقة والوريقات الصفراء ،
فليست إلا مسببات لانهطاط المدنية

وعلى أعمالنا الحالية يتوقف مستقبل أحفادنا وما اذا كانوا سوف يعيشون
عيشاً أسعد مما نعيش ، أم أنهم سوف ينقرضون تجمداً وتناحراً ، تاركين الارض
ميراثاً للسود وغيرهم من الأمم الهمجية لينبثوا فوقها دعائم التاريخ للأجيال المقبلة

حسين محمود

جيرولامو سافونارولا

بطل الحرية والواجب فى القرون الوسطى

ولد جيرلامو سافونا رولا فى فرارا سنة ١٤٥٢ واحرق حياً فى فلورنسا
سنة ١٤٩٨ .



عاش سافونا رولا ما عاش
قوى الايمان فى كل المثاليات العليا
سواء أكان مصدرها الدين أم تعاليم
الفلاسفة والحكماء . عاش عيش
النسك ليقوم بواجبه نحو الذى
فطره واسبغ عليه نعمة الحياة .
وحيا حياة القضيلة ليصفى نفسه
من الرذائل وليعطى المثل بنفسه
لمن حوله من أبناء آدم وحواء .
وقضى شهيد الحرية والواجب
ليخرج بالناس من ظلمات الشقاء
والتعاسة الى نعيم الحياه الدنيا
على ما فهمها . ولقد قام فهمه للدنيا

سافونا رولا

على أنها الحرية فالحرية عنده هى الحياة ولا حياة بغير الحرية .

في تلك العصور المظلمة ، عصور العسف والاستبداد ، عصور الفحش والفجور ، عصور الانحلال والفساد ، رفع سافونارولا راية الحرية وقاد جماهير المستبد بهم إلى ساحة الحرية . نادى سافونارولا بالحرية في تلك العصور التي كان مجرد التشدد بلفظ الحرية كاف لان يقع من يلفظ به تحت آلات العذاب ، تحت المخلة والسندان ، ليموت أشنع ميتة أو ليحرق وتذرى مع الريح بقاياها الترابية . فسلام على هذه العظمة . و سلام على هذه الروح . و سلام على الانسانية في أرقى صورها وامجد معانيها ، ممثلة في شخصية سافونارولا الخالد العظيم .

كان أبواه فقيرين ، غير أن أخلاقهما كانت للنبل مثالا . وكانت أمه قوية المراس شديدة البأس ثابتة العقيدة في كل ما تظن أنه أحق . ولقد عول أبواه بداءة على أن يخرجاه طبيبا . غير أن ميوله العقلية كانت تقبل قلة أخرى . وكانت ايطاليا في أواسط القرن الخامس عشر متهاكة على الشهوات مكبة على كبار الأثم والفواحش . وكان الأغنياء أسيادا مستبدين ، كما كان الفقراء تعساء أشقياء ، لاحظ لهم في الحياة إلا الخضوع لذوى الجاه والسلطة والمال .

طمع سافونارولا منذ نعومة أظفاره في أن يخدم الدين ويخدم الانسانية من طريق الدين . وأية قوة في العصور الوسطى كانت اتقذ من قوة الدين اثرا أو أبعد في الجماعات فعلا ؟ لهذا عكف على درس الانجيل وكتابات القديس توماس اكونياس . غير أنه لم يلبث على هذا غير قليل حتى اننى نفسه في صراع شديد وجلاد عنيف مع العالم الخاف به . قال

« لا يوجد انسان واحد في هذا الزمان يرغب بمجد في عمل الخير . انه يجب علينا أن نلجأ إلى الاطفال والنساء اللواتي هن من الطبقات الدنيا ، فهناك بقية من التقوى والفضيلة نعثر عليها . ان ذوى الفضيلة مستعبدون ، حتى لقد أصبحنا كالمصريين القدماء الذين حاولوا مرة أن يخضعوا شعب الله للاستعباد والرق »

لذلك عزم سافونارولا على أن يبتعد عن عالم الشر والرذيلة ، وأن يهب نفسه للآخرة وخدمة الدين . ففي الثالثة والعشرين من عمره حزم أمتعته القليلة ومن غير أن يودع أبويه يعم شطر بولونيا ، وقصد توأ إلى دير سان دومينيك وطلب أن ينتظم في سلك الخدم ، فقبل من فوره ، ثم أخذ يعددته لان يصبح كاهنا يعظ الناس ويبشر لهم بالوحي الجديد الذى استمدته من ذلك

الوحي الذي نزل من قبل على قلب عيسى . وبعد ذلك كتب لاييه خطاباً يعرفه
السبب الذي من أجله ترك بيته فقال « ان البواعث التي حملتني على أن ادخل
الخدمة الدينية كثيرة . ولكن أهمها التعاسة المنيخة على العالم ، والفوارق الكائنة
بين بني آدم ، ثم فحشهم وسرقهم وخيلائهم وغرورهم وعبادتهم للاصنام إلى غير
ذلك من مخازيهم الجلى . انى لم احتمل ما انغمس فيه أبناء ايطاليا من شقاوة
وعمى عن الطريق المستقيم . وزاد الى عندما رأيت الرذيلة في كل مكان فاشية ،
بينما الفضيلة تتوارى خزيا . وما من حزن يلم بى في هذه الحياة يضارع حزنى
على مثل هذا . لهذا صليت متضرعاً إلى المسيح عيسى أن ينتشاني من وهددة هذه
الذائل . ولقد كنت اكرر هذه الصلاة دائماً ضارعاً إلى الله أن يظهر لى الطريق
الذى يجب أن اسير فيه . وليس عندي بعد هذا ما أقول ، الا أن امت اليك ،
كرجل قوى العقل والارادة ، أن تهديّ خاطر أُمى ، راجياً أن تباركاني وأن
تغدقا على من مراحمكما قدراً جزيلاً »

لقد كانت المفاسد التي استولت على الكنيسة النصرانية في ذلك العهد كبيرة
يالغة الاثر . فان شراهة بولص الثانى وفساد سكستوس الرابع وجرائم الاسكندر
السادس (بورجيا) قد أوجدت جواً من القلق والشعور بالذلة والصغار في أرض
ايطاليا وبين جدران المدينة الخالدة . ولا مشاحة في أن عصر بابوية الاسكندر
السادس أكثر عصور التاريخ التي مرت على روما فساداً وأشدّها حلكة . لهذا
قال سافونارولا .

« أين الحكماء وأين القديسون ؟ أين حب المعرفة بل أين الحب نفسه ؟ أين
صفاء الازمان الخالية ؟ فيارب الا حطمت تلك الاجنحة التي لا تطير الا لتحيط
باصحابها حيث تكون المفاسد والدنايات ؟ »

أما الحرية فقبرت في ذلك العهد . لأن الامراء الذين حكموا بقية الشعب في
ذلك العصر لم يكن فيهم شيء من نشاط آباءهم ولا من حكمهم . انهم لم يسمعوا لشيء
إلا لحيازة القوة من حيث هي قوة لا تعنى بالحكم ولا اقامة العدل . وكثيراً
مما كان سلوكهم عاملاً على اثارة العزة في نفس محكوميه . حتى أن كثيراً منهم
قد قتلوا عياناً في رابعة النهار . فدوق غيلازو قتل في كنيسة ميلانو . والدوق
نيقولاوس ديسيت قتل في فرارا والدوق غيليانو دو ميديتشى قتل في كاتدرائية فلورنسا

في هذا الوسط الذي ملئ سفاهة وأسفاظاً نشأ سافونارولا . على أن رئيس الدير الدمومينيكي في بولونيا لم تخف عنه مواهبه العقلية الفائقة . فرفعه منزلة بأن جعله معلماً للمستجدين . ولقد كان يعتقد أن الطاعة أول واجباته ، فأكب على القيام بما عهد إليه بكل ما كان في قلبه من جرارة وإيمان . ومن ثم عهد إليه بأن يكون واعظاً . ولما بلغ من العمر ثلاثين سنة أرسل ليعظ في فرارا مسقط رأسه . غير أن مواعظه لم تصادف هنالك آذاناً صاغية . وهكذا تجد أن أهل الفضل في أوطانهم غرباء . فعاد من ثم إلى الوعظ في بريسيا وفي بافيا وجنوا حيث بدأت تظهر مواهبه الخطابية . وبعد أن أمضى سبع سنوات في الدير الدمومينيكي ببولونيا ، حط رحاله في مدينة فلورنسا ولقد دله الطريق الذي سلكه إلى فلورنسا إلى أرض جديدة . ولم يكن سافونارولا قد ضرب في آفاق جنوب إيطاليا ذلك المضرب من قبل . ولقد فضل أن يتم سياحته ماشياً على قدميه فكان لديه من الوقت ما سمح له بأن يملي ناظره بما حف به مناظر الطبيعة الفاتنة التي مر بها في طريقه ، ثم تسلق جبل لوجانو وهنالك وقف وقفة المترث ناظراً إلى الورا حيث كانت بولونيا ، والمنظر الطبيعي المترامي تحت قدميه والذي كان مقدور أن لا تقع عليه ناظره مرة أخرى . وهبط الجبل مخترقاً تلك الوديان الموحشة واحداً فرداً بلا رفيق ولا صديق ، وأخذ ينتقل من قمة إلى قمة ومن ذروة إلى ذروة حتى بلغ قمة لافيوتا حيث كان على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر ، ثم هبط إلى وادي السيف وعبر جبال الابنين التي تفصل بين وادي السيف ووادي آرنو . وهنالك رأى فلورنسا في عظمتها وأبهتها راقدة تحت قدميه في بطن الوادي . وفي هذه المدينة خلق سافونارولا في السماء ، وفيها اختتم حياته الخالدة بأن استشهد في سبيل الحق الذي اعتقد به ، وعنه دافع دفاع الأبطال .

لما وصل فلورنسا ذهب سافونارولا تَوَّأً إلى دير القديس مرقص حيث قبل راهباً .

كان لورنزو الكبير في أوج عظيمته وقوته . وكان قد تخلص من أعدائه بالنفي والسجن أو بالقتل . وكان قد أخضع الشعب آناً بالقوة وآونة أخرى بمبأذله التي كان يعتبرها أعياداً يشترك فيها الشعب ، ومراقصه التي كان يقيمها ، ومقاصفه التي

كان يملأ بها البطون ويسلب بها الارواح ، وأفراجه التي كان يعنى بها عين الجمهور ليرضخ لارادته . وبهذه الطريقة استطاع أن يختلب لب النبلاء ويحوز رضى العامة . وكان الناس قد نسوا كل ما تردى فيه لورنزو من السقاسف والردائل ، لانه كان رافع لواء الادب والمعرفة وحامى ذمار الفن . وتحت هذا العنوان استباح لورنزو لنفسه من الرذائل ما استباح .

يقول فيلارى « لقد كان الفنانون ورجال الأدب والسياسيون والنبلاء والعامة فى عصر لورنزو شرع فى فساد العقل والنفس . لقد جردوا سن الفضائل جملة ، سرّاً وجهرّاً . ولم يقدم مثل أعلى من فضائل الاخلاق . أما الدين فكان قد اتخذ وسيلة لاختضاع الناس للحكومة ، أو أداة للخداع . ولم يكن للناس من ثقة بالحكم المدنى أو الدين أو الآداب أو الفلسفة . حتى الشك نفسه فانه لم يقم فى عقل من العقول على صورة تتم على الجذ والاعتقاد الثابت . ولم يحتكم فى عقول الناس أو نفوسهم من مبدأ ، اللهم إلا عدم المبالاة بكل شىء ربيعاً كان أم وضيعاً » .

ولم يكديهم سافونارولا أرض فلورنسا حتى شعر بكل ما انتشر فى جوها من الرذائل . فلما بدأ يعظ فى كنيسة القديس لورنزو هاجم بكل ما أوتى من قوة ما رأى حوله من مفاسد فلورنسا . فذم القمار والغش والكذب ، وبدأ يضرب هذه الرذائل بسياط من القولاذ يرسلها لسانه على كل من سمعه من أهل المدينة . فكانت دهشة تحولت إلى امتعاض ثم إلى كراهية . تساءل الناس : من يكون ذلك الراهب الادكن الذى استطاع أن يتكلم بهذا اللسان ضد مفاسد فلورنسا ؟ وكانت فلورنسا مهبط الجمال ومبأة الفتنة ، فكيف يمكن أن يجد سافونارولا لنفسه فيها مكاناً ، وهو ربة القوام حالك الشعر كبير الانف مجعد الجفنين واسع النم غليظ الشفتين ذا كن البشرة ؟ هل يمكن أن يكون لمثل هذا الرجل مكان يشغله فى فلورنسا ؟

وكان لورنزو قد استطاع أن يلجم أفواه الوعاظ وأن يكها بعطاياه وصلاته العديدة فكان الناس يتقاطرون على غير سافونارولا إذا وعظ ، وينثون عن الشهيد اذا تكلم . فاذا أخذ عليه أحد الناس خطته وذكرك له نجاح رفيقه وحبوطه قال « يجب أن تسح خطايبات اللغة الطريق للوعظ الهادى البسيط اذا قام على

أساس من المذاهب الحقّة والمبادئ القيمة »

في أول أغسطس سنة ١٤٩٠ التي وعظا خلب الالباب ونبه كامن النفوس .
وكان اذ ذاك في الثامنة بعد الثلاثين من عمره . وفي السنة التالية أخذ الناس
يتقاطرون لسماع خطبه الوعظية ، حتى استطاع أن يدمغ شعور الناس بطابع
مشاعره التي كان يحس بها فائرة في نواحي نفسه ، ولم يعد بعد ذلك الرجل المهمل
الذي كان يعظ في كنيسة القديس لورنزو ، وهنا أنحى بكل أوتي من قوة
على الرذائل التي تردى الناس في حمائها ، فزاد الناس فيه حباً يوماً بعد يوم ، حتى
لقد أصبح الناس طوع كلفة يتحرك بها لسانه

وفي سنة ١٤٩١ صار رئيساً لدير القديس مرقص . فلزم صفاته الاولى من
الاستقامة والاستقلال في الرأي . وعلى الرغم مما أغدق به لورنزو الكبير من العطايا
الجسام على الدير ، فان سافونارولا مازال يرميه باشنع المطاعن . فلقد كان عالماً
بمقدار ما أفسد لورنزو من أخلاق الناس وما غرس فيهم من رذائله . وكان يعدّه
جلاد الحرية ، بل عدوها الاشد ، ولهذا كان يعتبره أكبر عقبة تصد الشعب عن
السعادة وتحول بين الناس وبين الارتداد إلى الحياة النصرانية الأولى . ومضى
ينحى على القمار بكل شائنة على الرغم من أنه مفيد مادياً للحكومة . ولعن اغراق
النبلاء في الترف والافراط في الفحش والاجرام ، محملاً اياهم تبعه افساد العامة من الشعب
وكان من مبادئ سافونارولا أن الانسان حر الارادة . وأن حرية ارادته
يجب أن تنصرف إلى فعل الخير . قال « ان أرادتنا هي بحكم طبيعتها الاصلية حرة
تماماً . أما تحقيق هذه الحرية فلا يكون إلا مع الحرية العملية » . وكان يؤمن بأن الله
يعون للناس . ولكنه مع هذا يحب الذين يعينون أنفسهم على الخير . وكان يقول
« صلوا بقلوبكم . ولكن لا تهملوا مع ذلك مطالب الحياة الانسانية . يجب
عليكم أن تساعدوا أنفسكم بكل الطرق والوسائل الممكنة ، هنالك يكون الله
معكم . كونوا شجعاناً أيها الاصدقاء ، واتحدوا قبل كل شيء » . وكان يقول
دائماً . « بالصدق يلزم الانسان عادة يعبر بها قولاً وفعلاً عن حقيقة نفسه كما هي ،
والصدق ان لم يكن قانوناً ، الا أنه واجب أدبي . لانه دين في عنق كل
انسان يؤديه إلى من يمتك بهم في الحياة ، كما أن اظهار الحق جزء لا يتجزأ
من اقامة العدل » .

بعد زمان انتقل لورنزو الكبير من فلورنسا إلى قصر كوريجي ليقضى أيامه الأخيرة . وكان انتقاله في أوائل شهر ابريل حيث تبسم الطبيعة وتفرد أطيافها المرحية فوق أغصانها المخضوضرة الرطبة . ويقع ذلك القصر في متوسط وادي أرنو على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال الشرقى من فلورنسا . ومن نوافذه يقع بصره على الدومو والكامبانيل ، وقباب كثير من الكنائس ، التى تعلو بها هياكلها المشمخة على الاشجار الباسقة . وإلى شمالى ذلك القصر تقع مرتفعات فيزول ، وعلى مسافة منها تبدو تخاطيط تلال توسكانيا كالأخيلة المتراوحة عند تنفس الفجر من وراء الافق السحيق .

كل ذلك الجمال الذى أحاط بلورنزو لم يكن كاف لان يبعد عنه ألم المرض واحتضار الموت . ولقد استعين عليه بكل العقاقير . وقطرت لورنزو كل أنواع المقطرات التى سحقت فيها الجواهر النادرة . فلم ينفذ فيه جوهر ولم ينعمه دواء . ولما أن أعيته حيل الارض ألوى بعينه إلى السماء ، فلجأ إلى الدين . وكانت أشباح الخطيئات التى ارتكبها تتجسم فى عينه كلما اقترب من الموت خطوة . ولم تهد كل الخدمات الدينية التى اقيمت من أجله فى اقرار نفسه حيث تقرر النفوس المطمئنة . فلقد كانت ثقته قد عدت بكل النوع الانسانى . لان كل انسان كان مطواعا لارادة لورنزو خاضعاً لها . ولم تكن له ثقة بمن اعترف لهم . كان يشكو عائلاً « لم يجرأ احد منهم على أن يتفوه امامى مرة واحدة بكلمة لا » وهنا بدأ يفكر فى سافونارولا . فان ذلك الرجل لم يخضع يوماً لتهديداته ولم يقنع رأسه ساعة واحدة أمام عظمتة . وما وصل الخبر الى سافونارولا بتفاقم حالة لورنزو وأنه فى احتياج اليه ، حتى سارع اليه فى قصر كوريجي .

ولقد روى الاستاذ فيلارى حقيقة الحديث الذى دار بين لورنزو وسافونارولا قال « لم يكذب يغادر بيكو دلا ميراندولا » *pico della Mirandola* الحجرة حتى دخلها سافونارولا ، وتقدم باحترام إلى فراش لورنزو المحتضر الذى بدأ الحديث بقوله أن لديه ثلاث خطايا يريد أن يعترف له بها ، ومن أجلها يطلب الغفران . أولاً نهب مدينة فولتيرا واستباحتها والثانية الاموال التى أخذها من مونت دل فانسيولا *Monte della Fanciolla* التى تسبب عنها كثير من القتل وازهاق الارواح . والثالثة الدماء التى أرهقت بعد مؤامرة بازي *Pazzi* .

وكان سافونارولا أثناء اعترافه يكرر له ذكر « إن الله غفور . إن الله رحيم » . ولم يكذب يثم لورنزو كلامه حتى بدأ سافونارولا يتكلم فقال : « مطلوب منك ثلاثة أشياء » -- أجابه لورنزو -- « وما هي يا أبت » ؟ وهنا تقطع جبين سافونارولا ومرت عليه مسحة من الحزن العميق ، ثم رفع أصابع يده اليمنى وبدأ الكلام فقال : « أولاً -- يجب أن يكون إيمانك برحمة الله كاملاً وثيقاً » . لورنزو « ذلك ما يملأ نفسي » . سافونارولا : « ثانياً -- يجب أن ترد كل ما أخذت بغير حق ، أو تلزم ولدك أن يردك عنك » . ولقد ظهر أن هذا الطلب قد أدهش لورنزو وسبب له حزناً بالغاً ، ولكنه بعد لأي قبل تنفيذه بأن هز رأسه بالإيجاب . وهنا قام سافونارولا وامتشق قامته ، وبينما كان الأمير المحتضر يهتز فزعاً ويرتعد خوفاً ورهبة فوق فراش موته . قال له سافونارولا . « وأخيراً يجب عليك أن ترد على أهل فلورنسا حريتهم المسلوبة » . ولقد كان هادئاً ، ولكن صوته كان مزعجاً خفيفاً ، وكانت عيناه ، وكأنما أرادت أن تشتت الجواب ، مركبتين على عيني لورنزو الذي استجمع إذ ذاك كل ما تبقى لديه من قوة ، وأدار إليه ظهره من غير أن ينبس ببنت شفة . وعلى هذا تركه سافونارولا من غير أن يجوده الغفران . أما لورنزو فان لدع ضميره كان قويا مضنياً ، حتى انه قضى بعد قليل وخلف لورنزو ابنه بييرو Piero وكان مفسداً مسفا كل اسفاف . فانحط بكل ما فيه من قوة الشباب على المفاسق والفحش ، ولم يعطف أقل عطف على الفنون ولا الآداب . ومضى سافونارولا يعظ كما كان يعظ من قبل . ولقد استطاع بييرو أن يبعده عن فلورنسا زماناً ما ، فرحل الى بيزا وجنوا ولكنه عاد مرة ثانية إلى فلورنسا وناء بكل ما أوتي من قوة على المستبدين . ولما اضطربت أحواله وقعت به المصاعب فكر في الارتحال للتبشير بالدين المسيحي في أقطار نائية ، ولكن العامة في هذا الوقت كانوا قد عرفوا فضائله وأيقنوا بأنه رسول الحرية والسلام فمنعوه عنوة عن الارتحال ، وكانوا يتقاطرون إلى حيث يقطن كالسيل الجارف . كان بييرو في ذلك الوقت قد عقد حلفاً مع البابا في روما ومع ملك نابولي ليستطيع بهذا الحلف أن يقبض على خناق فلورنسا وأهلها بيد من حديد . ولكنه سرعان ما نقض الحلف عندما علم أن فرنسا قد غزت إيطاليا . فان لودفيكو المغربي كان قد اغتصب حكومة ميلانو وأهاب بملك فرنسا شارل الثامن أن يغزو إيطاليا ،

وأن يبدأ بغزو مملكة نابولي . فعبر جيش فرنسي الحدود ، وسار إلى الجنوب . وأخذ ينهب حتى المدن ويستبيحها ، مذلاً بالعنف والقسوة كل عقبة اعترضت سبيله . وهنا خطر لبييرو أن يذهب لمقابلة شارل الثامن ملك فرنسا وأن يعقد معه صلحاً . وكان من نتيجة ذلك أن سلم بييرو إلى ملك فرنسا قلعة سارزانا Sarzana الشهيرة وثلاث مدن هي بيطراسانتا وبيزا ولحورن .

كانت مفاسد بييرو سبباً في أن يبغضه أهل فلورنسا ويحتقروه من صميم قلوبهم . فقد أنكروا عليه أن يدخل سراي الحكم ، بل إن حياته كانت في خطر حتى لقد اضطر إلى أن يلجأ إلى البندقية تاركاً فلورنسا على أبواب ثورة طاحنة . وهنا اختلفت وجهات النظر فكان اتباع أسرة مدتيشي يطلبون ملكاً وأهل فلورنسا ينادون بالجمهورية . وحمل كل من الحزبين سلاحه ووضع كل فرد يده على حنجرة أخيه . وكان سافونارولا هو رجل الساعة الذي تشرّب إليه الاعناق وتمتد له الأيدي تطلب العون والمساعدة . فدعى رجال الحزبين للاجتماع في « الدومو » وعمل على أن يوفق بينهما ويقرب بين مراميهما . وفي الوقت ذاته دعى الناس إلى التوبة والاتحاد والتصدق على الفقراء وإلى الثبات على الإيمان . ولم يكد ينتهي سافونارولا من خطابه حتى كانت الثورة قد هدأت نيرانها وتفشعت غياهاها الثقيلة .

واتجهت الفكرة إلى ارسال وفد من الشعراء إلى ملك فرنسا في معسكره . وكان من بينهم سافونارولا . ذهب بقية أعضاء الوفد يمتطون العربات الفخمة التي تجرها الجياد المطهمة . أما سافونارولا فذهب ماشياً على قدميه . وبينما كان الوفد عائداً من معسكر فرنسا يحمل ثمار الخيبة والفشل التقى بسافونارولا ماشياً على قدميه ليقابل ملك فرنسا وليطلب منه أن لا ينتهك حرمة فلورنسا وأن لا يستبيح حتى أهلها رجالاً ونساء . ولكن لم يجد قوله فتيلة .

وبعد قليل دخل جيش فرنسا المدينة بلا مقاومة وأخذ ينهب قصر مدتيشي واشترك معه في النهب أهل فلورنسا فلم تمض سوياعات قليلة حتى كانت التحف التي استجمعت من ذلك القصر التاريخي خلال نصف قرن من الزمان قد حطمت أو أحرقت أو نهبها ذوو الطمع ومحبو المال .

ولما يم الجيش الفرنسي شطر الجنوب تركت فلورنسا بغير حاكم . واختفى

أنصار أسرة مدتيش كما لو كانوا قد ابتلعهم الأرض أو رفعوا إلى السماء . ولم يبق في فلورنسا من رجل يستطيع أن ينفذ ارادة الشعب الفلورنسي سوى سافونارولا . فعقد مجلساً ذهب فيه إلى تكوين حكومة على نسق حكومة البندقية قائلاً : « انه النسق الأوحى الذى دلت التجارب على صلاحيته » . وبعد مناقشات طويلة استقر رأى على تنفيذ فكرة سافونارولا ، ولم تكد تكون الحكومة حتى رجع الرجل إلى مواعظه الدينية منقطعاً عن زخرف الدنيا غارقاً فى طيات نفسه متوجهاً بكليته إلى الله . غير أنه بدأ يدعو إلى الإصلاح . إلى إصلاح الحكومة وإصلاح الكنيسة وإصلاح الاخلاق . وبدأ يبشر للناس بفكرة الحرية . حتى لقد قال : « إن الحرية بمعناها الحقيقى تنحصر فى تعليم الناس على أن يحيا حياة طيبة كلها خير وسعادة . وأى ضرب من ضروب الحرية ذاك الذى يخضعنا لاستبداد فرد لا قانون له سوى الشهوات والاغراض ؟ والآن . هل تريدون يا أهل فلورنسا أن تنعموا بالحرية ؟ هل تريدون أن تكونوا أحراراً ؟ إذن يجب عليكم قبل كل شئ أن تحبوا الله من قلوبكم وتحبوا جيرانكم وتحبوا بعضكم بعضاً . أما اذا غرستم فى قلوبكم هذا الحب واتحدتم فهناك تستطيعون أن تنعموا بالحرية الصحيحة . »

ولقد عملت الجمهورية التى أسسها سافونارولا فى فلورنسا على إقامة العدل وتخفيض الضرائب وإلغاء التعامل بالربا . فقد كان مالىو اليهود يقرضون الناس بربا قد يتجاوز الثلاثين فى المائة ، وعلى الأخص لأصحاب الاعمال الصغيرة والعمال ووضع نظاماً للرهنون ليحمى مصالح الفقراء وذوى الحاجة من الصناع . ولقد سمحت الجمهورية لأقرباء دانتي الشاعر المشهور أن يعودوا من المنفى إلى مدينتهم الأصلية ، وكان الشاعر الخالد إذ ذاك فى أشد حالات الفقر والتعاسة .

تبدلت فلورنسا من مدينة الخلاعة والفسق والفجور إلى مدينة كلها التقوى والصلاح . نخلع النساء حليهن ولبسن أبسط الملابس وأكبر العمال والتجار على قراءة الانجيل والتوراة فى ساعات الفراغ أو أخذوا يدرسون كتب الأدب والتاريخ . وكانت الكنائس تكتظ بالمصلين الذين أرادوا أن ينسبوا إلى الله زلفى . أما أغرب ما وقع فى ذلك العصر أن المراهبين كانوا يردون إلى الدين يعاملونهم بمقادير من الاموال كانت دخلت إلى خزائنها بفاحش الربا عملاً بتعاليم الرسول الجديد كل هذا فعله سافونارولا بمفرده بلا عضد أو نصير .

بلغ سافونارولا في سنة ١٤٩٥ أقصى مبلغ من الضعف عقلياً وجسمانياً .
فانه كان يعيش عيش الزهادة والفقر . وكان قائماً على الصلاة عاكفاً على الصيام .
وكان ينام على فراش من الخشب عليه غطاء بسيط وكان منظر حجرته ينم على الزهد
لبساطة أثاثها وحقائبها .

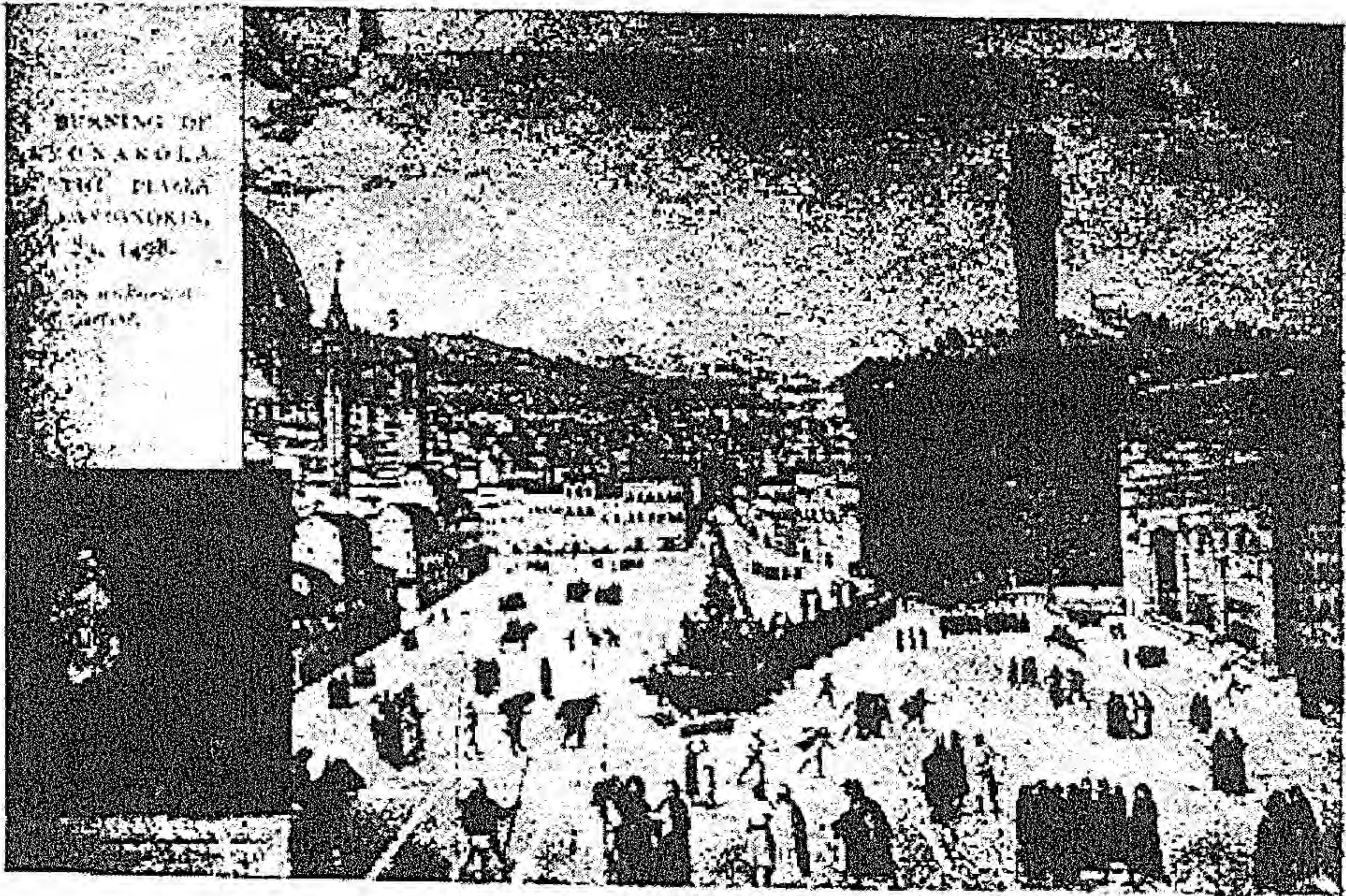
لم يكن هذا الجهد البالغ لينيل سافونارولا في نظر المستبدين شرفاً ولا محبوباً
مجداً . فان عدداً من المؤتمرين به أنصار مدتيش قد حاولوا اغتياله في ذلك الحين
ظانين أن موته كاف لعودة الحكم اليهم وإلغاء الجمهورية . فاحاط به فئة من ضمنهم
يحملون السلاح وأرغموه وهم يحيطون به على أن يغادر الدومو الى دير القديس
مرقص . وهنا أرسل البابا اسكندر السادس (بورجيا المجرم) أمراً بأن يكف سافونارولا
عن إلقاء مواعظه لانه يبشر فيها بمبادئ فاسدة . وبينما كان المصلح الكبير شبه
سجين مقصياً به عن منبر الخطابة والوعظ كان أنصار مدتيش يذيعون في المدينة
كل موبقة ليزينوا للناس الغواية والفساد تنفيذاً لأغراضهم . غير أن أبلغ رد
ردت به مدينة فلورنسا على هؤلاء أن أولاد الذين هدام سافونارولا الى الطريق
الاصوب خرجوا من المدينة متظاهرين يجمعون الصدقات من الناس ليساعدوا
بها نبيهم الفقير الجائع المأسور بين جدران الدير الموحش .

وخشى البابا سوء العاقبة . فأنهى أمره الاول وسمح لسافونارولا أن يعظ
ثانية . بل صرح بانه يجعل سافونارولا كاردينالاً لو أنه رجع عن أسلوبه الخطابي
الذي كان يلقي به مواعظه . وعرض الامر على البطل الجائع فرفضه بكل اباء ، قائلاً
في موعظته التي ألقاها بين جدران « الدومو » ضبيحة اليوم الثاني .

« اني لا أطمع في القبة الحمراء ولا في كساء الكردانة أني لا أطمع في شيء
اللهم الا تلك النعمة التي أنعم بها الله على القديسين . نعمت الموت . ولو كنت قد
طمعت في الجاه الدنيوى ، فكلكم يعلم حق العلم اني لم أكن أقف بينكم اليوم
بعبادة يكاد نصف جسمي يظهر من خلالها . وانى لعل استعداد لان أضحي
حياتي في سبيل واجبي » .

ونزلت بفلورنسا النوازل واجتاحها الكوارث . ففي خلال الزمان الذي
حوصرت فيه مدينة بيزا اشتد باهلها الفقر والجوع حتى كنت ترى فقراء الناس
على جوانب الطرق وقد أخذهم الموت عرباً وجوعاً . وتفشى في المدينة الطاعون

وأخذ يختطف الارواح ويحصد النفوس حصداً . وهنا بدأ سافونارولا يقوم بواجبه . فكان يرسل المرضى الى خارج المدينة ، وبقى هو وأتباعه داخل الاسوار الموبوءة لا يتأخر لحظة واحدة عن أن يلج الدور التي غزا أهلها الوباء ليقوم للمحتضرين بأخر الفروض الدينية . ولم يمض شهر حتى كان الطاعون قد هدأت نوبته ، لتحج مرة أخرى مؤامرات أنصار مدينتشى ضد الجمهورية .



احراق سافونارولا حيا
عن صورة قديمة لفنان غير معروف

وبقى سافونارولا جاثماً بين جدران ديريه وقد بدأ في طبع كتابه المسمى « انتصار الصليب » . وفي هذا الكتاب بث مذهبه الدينى الذى قال فيه بأن النصرانية تقوم على ثلاثة أشياء : العقل ، والحب ، وحرية الضمير . وكان هذا الكتاب بمثابة رد على بلاغات البابا وأوامره ، وبدأ يدرس فى المعاهد باجازه من مجمع الفهرست الرومانى . وعلى الرغم من هذا فإن البابا (بورجيا الاثم) قد أصدر أمره بفصل سافونارولا عن الكنيسة فى سنة ١٤٩٧ . ومنع الامر البابوى كل أحد من أن يتصل به أو يساعده باعتباره هرطوقا خارجاً على الكنيسة مفصولاً عنها . واجتمع فى الكاتدرائية جمع غفير من رجال الدين وعلى رأسهم الاساقفة من مختلف الجهات وقرئ عليهم أمر البابا . وبعد أن قرئ أطفأت الانوار فجأة وترك كل شيء من الكلام حيث خيم سكون عميق كسكون القبور .

وَأُلْقِيَ سَافُونَارُولَا آخِرَ مَوَاعِظِهِ فِي ١٨ مَارِسَ سَنَةِ ١٤٩٨ بَعْدَ أَنْ طَلَبَ
 الْبَابَا أَنْ يُرْسَلَ إِلَيْهِ الْهَرَطُوقُ وَبَعْدَ أَنْ رَفَضَتْ فُلُورِنْسَا أَنْ تُرْسَلَ بِهِ إِلَيْهِ . وَحَتَّى
 هَذَا الْحَيْنَ كَانَ سَافُونَارُولَا أَكْثَرَ النَّاسِ فِي فُلُورِنْسَا شَهْرَةً وَأَحْبَبَهُمْ لِقُلُوبِ النَّاسِ
 وَأَثْبَتَهُمْ عَلَى الْهَدَايَةِ عَزِيمَةً وَأَكْثَرَهُمْ عَلَى التَّقْوَى حُضَا . غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَعْرِفُ كَيْفَ
 تَعْمَلُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَكْمُنُ وَرَاءَ الثُّورَاتِ الْفَجَائِيَّةِ أَوْ تَحْتَبِئُ وَرَاءَ الظُّوَاهِرِ الْنَفْسَانِيَّةِ
 فِي الْأَفْرَادِ وَالْجُمَاعَاتِ . فَإِنَّ سَافُونَارُولَا الَّذِي كَانَ نَبِيَّ فُلُورِنْسَا بِالْأَمْسِ ، قَدْ أَصْبَحَ
 بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَغَدَاةٍ ذَلِكَ الْخُدَاعُ الْمَاكِرَ الَّذِي فِيهِ مِنْ قُوَّةِ السَّحَرِ مَا يَخْضَعُ الْجُمَاهِيرُ
 ذُرُورًا !!! وَذَابَ إِذْ ذَاكَ أَنْصَارُهُ وَفَنُوا كَمَا تَذُوبُ أَكْوَامُ الْمَلْحِ يَطْمُو عَلَيْهَا
 مَدَّ الْبَحْرِ الْخَضَمَ .

قَبِضَ عَلَيْهِ وَزَجَّ بِهِ فِي أَعْمَاقِ السَّجْنِ وَعَذِبَ مَرَاتٍ ثَلَاثَ . فَنَفَى يَوْمَ ١٥
 مَآيُو سَنَةِ ١٤٩٨ وَصَلَ إِلَيْهِ مَسْدُوبُ الْبَابَا وَأَوْقَعَهُ تَحْتَ عَذَابِ الْآلَاتِ الْجَهَنَّمِيَّةِ ،
 وَأَخَذَهُ الْبَحْرَانِ فَكَانَ يَجِيبُ أَجُوبَةً مُتَنَاقِضَةً وَيَهْذُو ، لِأَنَّهُ ضَعْفَ جِسْمِهِ وَهَزَالَهِ
 كَانَ قَدْ بَلَغَ بِهِ أَقْصَى مَبْلَغٍ مِنَ النُّحُولِ . فَاتَّخَذَتْ أَجُوبَتُهُ تِلْكَ دَلِيلًا عَلَى هَرَطَقَتِهِ
 وَخُرُوجِهِ عَلَى الْكَنِيسَةِ .

وَعَقَدَ مَسْدُوبُ الْبَابَا اجْتِمَاعًا فِي ٢٢ مَآيُو سَنَةِ ١٤٩٨ وَأُصْدِرُوا عَلَيْهِ حُكْمَ الْمَوْتِ
 هُوَ وَاثْنَيْنِ مِنْ أَنْصَارِهِ هُمَا دُومِينِيكُو وَنِيكُولِينِي وَكَانَ نَصُ الْحُكْمِ أَنْ يَقَعَ الْمَوْتُ
 بِلَا أَرَاقَةَ قَطْرَةٍ مِنَ الدَّمَاءِ ، شَفَقَةً وَرَفَقَةً بِهِمْ وَكَانَ مَعْنَى هَذَا أَنْ يُحْرَقُوا أَحْيَاءً .
 وَلَقَدْ قَابَلَ سَافُونَارُولَا وَرَفِيقَاهُ الْمَوْتَ بِشَجَاعَةٍ نَادِرَةٍ الْمَثَالِ . فَنَفَى يَوْمَ ٢٣
 مَآيُو سَنَةِ ١٤٩٨ قَضِيَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْعَظِيمُ وَصَاحِبُهَا شَهْدَاءَ فِي سَبِيلِ الْحُرِّيَةِ وَحَدَّهَا
 وَبَعْدَ أَنْ أَكْتَبَهُمُ الزَّيْرَانُ سَحَقَتْ بِقَايَاهُمُ التَّرَابِيَّةُ وَذَرِيتُ مِنْ فَوْقِ جِسْرِ فِكْشِيُو
 حَيْثُ حَمَلَتْهَا الرِّيحُ إِلَى مِيَاهِ « الْأَرْنُو » الْمَتَدَفِّقَةِ وَلَمْ ، يَكُنْ لِسَافُونَارُولَا مِنَ الْعُمُرِ
 إِلَّا خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ عَامًا قَضَاهَا فِي الدِّفَاعِ عَمَّا يَمْتَقِدُ أَنَّهُ حَقٌّ ، خَاضِعًا أَبَدًا لِمَا كَانَ
 يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ .

فِيلُوزُوف

عسف الاقدار^(١)

— ١ —

البيت صغير منخفض . وقد أشرق القمر بعيد السدال ستر الظلام فالتقى على الجانب الغربى من القرية ، حيث كان يقوم ذلك البيت ، بظل ظليل ، كاد يحجب ضوء البدر ليلة تمامه .

فى جوف تلك الطبيعة الصامتة ، وتحت جنح ذلك الليل الهادئ الذى يستر العورات ، ويخفى الجرائم والآثام ، انسل شبح بشرى فى وسط حقل يعجب الزراع نباته ، وهو يحمل بين يديه شيئاً مسجى بقطة من القماش البالى .

أما الوجه فشاحب نحيل ، يكاد يشف عما تحت بشرته من العظام اصفراراً . والعينان غائرتان ، رغم كبرهما وجمالها ، ترسلان لمعاناً مخيفاً . فلو أنك نظرت فيما ترسلان من نظرات حادة طويلة الى ما حولها ، لما خيل اليك فى كل وقائع التاريخ من مثل لهما ، اللهم الا عينا ما كبث وقد هم بقتل ضنكان ، أو عينا بروتوس بعد أن قضى على قيصر الخالد العظيم . والقامة ممشوقة ، والقدر أهيف ، ولكن النحول أخذ منه مأخذه حتى ليخيل اليك أن نسبات الليل الندية ، كافية لان تدمى ذلك الهيكل المتداعى . غير أنك لو فتشت فى جوف هذا الهيكل المهدم لوقعت على ارادة متمرده قفازة الى غاياتها ، وثابة الى آمالها وأحلامها .

وأخذ الشبح يقترب من ذلك المنزل الصغير رويداً رويداً ممسكاً أنفاسه ، ولو استطاع لأمسك حتى خطرات نفسه عن أن ترسل فى الانبعاث حذر واش أوريبيب . ولما أن احتواه ظل القرية الذى كان يحجب البدر عند شروقه أسرع الخطا الى نافذة كانت مفتوحة فى طابقه السفلى ، وقفز منها الى داخل المنزل .

وعاد الشبح مرة ثانية الى الخلاء ، ثم انحدر فى تسارع من الخطا يكاد يبلغ العدو الى الجنوب ، ثم مضى الى داخل القرية ، وما زال يلج من طريق الى آخر حتى اذا انتهى الى الطرف الشرقى انسل الى باب وشد وراءه الرتاج . وهنا انسدل ستر من الأمل فى اخفاء جريمة ، حيث أزيح فى الطرف الآخر ستر من اليأس فى اخفائها .

(١) القصة واقعية حدثت فى قرية من قرى القليوبية المحاذية لائيل

- ٢ -

عمران رجل زهد في الدنيا وزهدت الدنيا فيه . رجل عاش ما عاش قائماً بما بين يديه وان كان في ثروة ما تهيات الا للقليلين من سكان قريته . أخذ من العلوم بضلع وافر وحازت نفسه من الادب والقناعة والرضا بما قسم الله قسطاً جعله يتخذ في الحياة من الفلسفة أسلوباً ، هو عند حد قول الشاعر :

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضي عيون تكرور تبراً
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبراً
وكثيراً ما كنت ترى عمراناً جالساً على حافة غدير أو تحت شجرة ، يطيل النظر في الماء الجاري ، أو يعبث بالخضرة في يده وبالأوراق والاعضان المدلاة من فوق رأسه . وكأنه في حياته كلها وفي هدوئه وسكون نفسه واطمئنانه مثل لقول الشاعر :

قليل اللهم لا ولد يموت وليس بخائف شيئاً يفوت
قضى وطر الصبا وأفاد علماً فغايته التفرد والسكون
وأكبر همه مما عليه تناحر من ترى خلق وقوت

وقد عرف ذلك الرجل بالصلاح والتقوى والثبات على ما يعتقد أنه حق ، وكان وكان فوق ذلك صريحاً في لين ، وشجاعاً في دعة ، وقوياً في شفقة ، وجباراً في رحمة ، وباساً في لوعة ، وبأكياً في جذل ، وجذلاً في بكاء ، فهو في مجموع ما فيه من صفات مثل رائع لهذه الحياة الدنيا ، إذ تتفق متناقضاتها على الانسان ، قيثارة الطبيعة ، وصوتها المنبعث من جوفها الهامد العميق .

وكان في بيته وحيداً بعد أن ذهب الموت بمن كان يلوذ بهم أو يلوذون به من الاهل ، ولم يبق له الزمان الا على أخت له اختار لها الغيب أن تظل عالماً ، وأن تسهر على راحة أخيها وأن تقوم بخدمته . وقد خلا كلاهما من مشاغل هذه الحياة ، فكانا قلما يجلسان جلسة المتناجين أو المتسارين بشيء من أخبار أهل القرية ، ذلك لأن الايمان كان قد ملا قلوبهما فلم يترك فيه لمشاغل الدنيا مجالاً .

وكان من عادة عمران أن يمضي وقتاً طويلاً في المسجد بعد العشاء يتوجه فيه الى الله من غير أن يتحرك لسانه بكلمة ، أو يسمع له صوت ، وكأنه في صلاته الصامته يقول :
« أنت يا سر الوجود ، يا حي يا معبود ، يا مستبب الاسباب ، يا مفتاح الابواب ،

أعنى على نفسه ولا تمن نفسه على ، يا أبدى القدم ، أنت الحق وكل ما خلاك فناء وعدم »
وكثيراً ما كان يرى عمران في خشوعه وثورة نفسه ذاهلاً عن هذا الوجود
أثناء صلاته الصامتة ، وعيناه ترسلان قطرات من الدمع ، تنهاطل كاللآلى نظمت
سبحه ، تذهب اللؤلؤة منها في إثر أخرى .

وطالت في تلك الليلة غيبة عمران إذ أمضى سريعات يتأمل في مر هذا
الوجود وفي العناصر والناس ، والله والدين والأنبياء والرسل ، وفي غرور الإنسان
وجشعه وطاعيته وتهالكه على السفساف ، وفي جرائمه وآثامه وما يدفع إليها من
العوامل النفسية ، والقواصر العقلية ، وأخذ يتيه من قفر إلى قفر ، ويتنقل من
فكر إلى فكر ، حتى إذا أرسل القمر من كوة صغيرة كانت بجانبه خيطاً من
الضوء فجاءه ، تنبه إلى العالم الخاف به ، فاذا نصب النهار قد أهدم الأحياء ، وإذا
بالقرية كأنها وادى الموتى ، تغط في سكون عميق ، وقد أسدل الليل على حسناتها
وسيئاتها من الظلام حججاً .

وكان الوقت خفيفاً ، والهواء بايلاً . فأسرع إلى منزله الصغير المنفرد في
حرف القرية ، ولم يكد يصل إليه حتى شعر بأن في البيت روحاً جديدة نهبت فيه
كامن مخاوفه من الدنيا وظروفها الأحياء ومكائدهم . ولم يكد يبلغ إلى فراشه
ليجمع بعد طول نصبه ، حتى شعر بأنفاس تتردد بجواره ، فأشعل ناراً ، وإذا
به يرى فوق فراشه طفلاً حديث الولادة في خرقة بالية ، ما من سبب في وجوده
هنالك إلا الجريمة يرتكبها الآثمون ، ويلقون بشمرتها على أبواب الأتقياء .

— ٣ —

لو أن الأم المشفقة الآثمة ، لو أن الأم البارة المجرمة ، قد وجدت من هو
أوسع من عمران صدرأ ، أو أرحب بيتاً ، أو أكرم نفساً ، أو أعرف بما يبعث
شيطان الشهوة على شرائع الله والناس في قواصر تهدم قواعدها ، وتهد قائمتها ،
أو لو أنها وجدت من هو أحفظ لسرها ، وأعرف بسر خطيئتها من عمران ، لما
ترددت لحظة في أن تقذف بثمرة جرميتها على بابه . ولكن باب عمران في الأرض
كباب الله في السماء ، يسمع الائم ويغفره ، ويسمع التوبة ويقبلها ، ويسمع الخير
ويثيب عليه ، لهذا لم تجد الآثمة من باب مولوح يسم كل هذه الأشياء إلا باب

عمران ، بهذا قذفت بالثمرة المريرة اليه ، وهى على اعتقاد كامل فى أن المغفرة والتوبة رهن عليه .

هى أم بارة ولكنها آئمة . أم مشفقة ولكنها مجرمة . أم من أهل القرية أرادت أن تجعل بيت التقوى سترأ على جريمتها ، ورأت أن نظرة واحدة ترسلها الى ابنها فى بيت عمران من غير أن تستطيع أن تناجيه : « إلى يا ولدى » وتضمه الى صدرها ، خير من أن تفقد كل أمل فى أن تراه ، فتقضى العمر نادبة سوء حظها ثاكلة حشاشتها .

ليت شعرى كيف شعرت تلك الأم المحزونة إذ هى تلقى بابنها الى فراش عمران ؟ ألم تقبله قبلة الوداع ؟ ألم تذرف على وجهه المشرق الطاهر دموع حزينة ؟ ألم ينبض لها قلب ؟ ألم تتحسر ؟ ألم تتوجع ؟ ألم تتذكر كيف كانت لذة ساعة أعقبت شقاء العمر وسبة الأبد ؟

وبعد . فاذا كانت الشرائع قد اعتبرت الأم آئمة ، فما هو إثم ذلك الطفل الضعيف المسكين العاجز عن كل شىء ، اللهم الا عن الموت ، يتلقاه دمع العين صارخاً فى وجه المجتمع ، إن لم يهين له الله قلباً كقلب عمران ، مسته الرحمة فى صميمه ، سكنت الشفقة فى السواد من حبته .

عين الأم باكية حسرى . وعين الطفل ذاهلة حيرى . وقلب عمران فى اضطراب وخفوق . وفكره تائه فى بحر لجى من التأملات . تلك كانت حال هؤلاء عندما انتهت عزيمة عمران على أن يكون للطفل فى مكان الأب والآثم الغادر . ونادى « تفاحة » أخته فهبت مسرعة ، وأمرها بأن تعنى بالطفل ، لانه عزم على أن يتبناه وأنه يصبح أباً فى غير أبوة ، وحاملاً عن أب الطفل جرحاً ، وعن أمه إثمًا .

— ٤ —

وانحدرت السنون ، فاذا عمران كهلاً قانياً ، واذا عبد الله بن عمران ، قفى يناهز العشرين من عمره . طويل القامة مفتول الساعد ، واسع المطامع ، كبير النفس ، نخور بقوته صادق الوعد ، شديد المراس ، ما عرف اللين فى نصرة حق ، ولا عرف هوادة فى دفع باطل . بيد أنه كان مع هذا مخاطراً مجازفاً بكل ما بين يديه ، فما كان

ينتظره من شئ من مستقبله ، اللهم الا منصب الرئاسة ، أوحبل المشنقة . وليس بينهما وسط ينزل فيه عبد الله .

ولما ان بلغ عبد الله السابعة من عمره عهد به عمران الى شيخ من شيوخ القرية ، من ظواهره التقوى والصلاح ، يعلمه القراءة والكتابة ، وعدد السنين والحساب ، ويحفظه القرآن عن ظهر قلب ، بينما عهد عمران الى نفسه بتهديب تلك النفس التي القيت بين يديه ، ولم يكن يعرف من حقيقتها شيئاً . وقد لزم الشيخ المعلم عبد الله ، فلم يكن يبارح الدار الا في هدأة من الليل ، ويعود اليه مع البازي عليه سواد .

وكان في خدمة عموان رجل عهد اليه باعمال الفلاحة في الحقول . رجل من أولئك الرجال الذين كثيراً ما يرون في القرى ، غليظي الاكتاف ناتئ الجباه ، كبيرى الأنوف ، ما يدل منظرهم على شئ الا على الغباء مقروناً بقوة بدنية مفرطة ، وهم فوق ذلك مستهينون بالحياة ، يؤدون فروض الدين ومراسمه من صلاة وصوم تقليداً ، لانهم يرون غيرهم يفعل ذلك . فهم خلو من كل فكرة من الحياة ، بل ومن الموت ، وفيما ينتظرهم بعد الموت من غمرة لا يعرف انسان لها حداً . وكان ذلك الرجل زوج امرأة مفتونة فاسدة . وأب لثلاث بنات هن صورة من أمهن ، مفرطات في كل شئ ، جامحات مع الهوى ، جانحات الى الشر والغواية . والأب مع كل هذا في غفلة عنهن بالمحراث والابقار .

ومالنا وللاسترسال في وصف «صالح» هذا ، فهو حيوان في شكل بشري ، ينام حيث يتفق ، ويشرب مما يجد ، ويأكل ما يقدم اليه ، ناسياً ان من حوله جلبة تدعى العالم الانساني أو المجتمع البشري . إن القيت اليه بألف من الاصغر الرنان ، فكأنك القيت اليه بقطعة من خرق باثرة القيمة . وإن ضم جيبه خزان قارون ، أملق أملاك الشعر الشعراء في عصر عمر بن عبد العزيز ، فهو راض بكلتا الحاليتين ، لا عن قناعة ورضاً ، ولا عن تواضع وإمعان في الزهد ، بل عن جهل بما تتطلب الحياة من حاجات ، وعجز عن إدراك ما تقتضيه ظروف العصر الذي يعيش فيه من ضرورات ، ولأن حاجات الحياة كلها تستوى في نظره . ذلك لأن كفة ميزان الفكر والعواطف قد شالت في نفسه الى أبعد حد يمكن ان تبلغ اليه في نفس بشرية من طينة آدم وحواء .

و ذات يوم بينما كان عبدالله مع صالح في الحقل ومن حولهما الابقار والخيول امتطى عبدالله صهوة جواد من جياد عمران . عرف فيه أنه جماحة رماحة . وما خطر لصالح أن عبدالله يكون في خطر اذا هو امتطى صهوة ذاك الجواد . وما شأن صالح وكل هذا ؟ وماذا عليه لو أن عبدالله قد رجع سالماً أم دقت عنقه سوف تشرق الشمس من المشرق وتغرب في المغرب ، وسوف يأكل خبز الشعير ويشرب الماء في الغدران منبطحاً على صدره فوق الأرض . وسوف يجد شجرة ينام تحتها نومة طويلة هنيئة . ولتسقط بعد ذلك السماء على الأرض فتدكها دكا وما لبث صالح على هذا غير قليل حتى تعالى الصياح من ناحية القرية ، وزاد عويل النساء ، ذلك لأن الجواد جمع بعبدالله ، وأخذ يجوب طرقات القرية إلى أن انحدر في منزلق وعرف فكباً براكبه ، فلم يترك في عبدالله إلا عينا تنظر ، ونفساً يتردد ، ضعيفاً خافتاً

— ٥ —

إليك « يامقبولة » فقد فزت على الرغم من أبي بشيء أساعدكن وأباك ، وكنت سبباً في طرده من الخدمة بعد أن قضى فيها طوال السنين والاعوام . لقد بعث مصحفى وقليلاً من كتبى بهذه الدريهمات بعد أن ضن على أبي بقليل من المال انفقته في سبيل الشيخ صالح ، أو أمد اليه به يد المساعدة في محنته . فشكرك ياسيدى على ما تفضلت به ، ولو أنك أرحت نفسك من هذه المتاعب لكان خبر ابلاك وحدد مشبعاً لنا من جوع ، ومغنياً لنا من فقر وخصاصة . وجلس عبدالله بجانب « مقبولة » يناجيها وتناجيه ، وهى بعد تتحرش بحرارة شبابها لعلها تصيبه ، حتى مال مع الهوى فضمها إلى صدره ، وطبع على جبينها قبلة طويلة حارة ، كانت بدء مأساة تمثل فيها عف الاقدار . كل هذا وصالح يغط في نومه تحت السلم غطيظ البكر شد خناقه ، في غفلة عما تأتية كبرى بناته من اثم في غير حب وغواية في غير اخلاص .

— ٦ —

مال ميزان النهار وأرسلت الشمس أشعتها الذهبية على صفحة النهر النحاسية

أصيل يوم من أيام الصيف ، وعبدالله يسير والشاطىء يتنسم من عليل الهواء مايفتح لآماله الكبار أمام عينه بابا ، حتى اذا بلغ بعدهنية موضع السقاية ألقى « مقبولة » واقفة على حجر ناصع البياض ، وقد كشفت عن ساقين ابيضين خلقه فتنة للنظر ، ومخبئة للعفاف ، وشمرت عن ساعدين بضين ، لو أن « فدياس » كان حياً ورآها لما اختار غيرها لدراعى « الزهرة » مثالا .

وأنت ترى فى وجه « مقبولة » وفى قسماتها آثاراً من خفة الفرنسيات وجمال التركيات . ومامن شك فى أن ذلك الدم يجرى فى عروق كثيرات من بنات مصر ، وعلى الأخص فى القرى التى تجاور المدن العظمى على شاطىء النيل وقفت « مقبولة » تنتظر من يساعدها على رفع جرتها لتذهب بها إلى القرية فلما رأت عبدالله مقبلاً ، وقفت فى خجل واستحياء مصطنع ، تلك الوقفة المريبة وقد ملت ثيابها على جسمها لتظهر محاسنه ، فكانت عند قول الشاعر

أبت الروادف والشدى لقمصها مس البطون وأن تمس ظهوراً
وماهى الا نظرة فابتسامة ، فسلام فكلام ، فلذة نسيان آثمة فى جوف
حرس قريب من شاطىء النهر أتما بها هيكل الجريمة التى بدأ بها فى بيت أبيها

— V —

كان عمران على الرغم من توجهه إلى الله ، وانصرافه عن مشكلات هذا العالم الانسانى ، رجلاً يعرف الدنيا وحالاتها ، ويعلم إلى أى حد تذهب بالشبان حرارة حرارة الشباب ، وإلى أية مهواة تلقى بهم فيها نزعات الصبا . ولقد لاحظ أن عبدالله مفتون بجمال « مقبولة » مأخوذ بقامتها المقدودة ، وعينها النجلاوين ، وأنقها المحدود كالسيف ، وفيها الصغير العنابي ، مقدور النفس بدلالها وعجبها ، وان شئت فقل باستهانتها وابتاحتها .

وكان ابوها صالحا قد استطاع أن يجمع من شتات ما بين يديه من ثروة سيده عمران ، فضلات أغنته وأهله عن أن يعمل واياهن فى الحقول ، فنشأت مقبولة نشأة بعيدة عن أن تمس شيئاً من جماها الطبيعى ، فشبت فى كفاف من العيش كفاها مؤونة التضحية نجماها على مذبح الحاجة والضرورة . ذلك الجمال الذى ضنت به الاقدار عن أن يبذل فى سبيل العمل رخيصة ، فضحت به مقبولة على مذبح الشهوة عجباً بنفسها وتيها

وكان اللفظ قد ارتفع من حول مقبولة وعبد الله ، وقام في ذهن عمران أن يأخذ عبد الله بالحكمة والموعظة الحسنة . فلما مثل بين يديه أخذ يذكره بعذاب الآخرة ، وبأن الله لا يرضى إلا بما أمر به في كتابه الكريم ، وإن علاقته بتلك الغادة أمر تعافه الشرائع ، وإن زواجه منها أمر تحول دونه التقاليد ، وأنه لا يرى في هذا الأمر من رأى أقوم من أن يتغلب عبد الله على شهواته بقوة ارادته ، وأن يسلو تلك التي فتنت لبه وسلبت منه فؤاده ، متسائلاً : ماذا تكون قيمة شخص في هذه الحياة عقد لسانه من الخجل وسلب فؤاده من من مس الحب والهيام ، متمثلاً بقول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وبينما كان عمران يفيض على عبد الله بهذه المحاضرة ، كان هذا غائباً عنه بقلبه وإن كان حاضراً بجثمانه . بل كان يجري على خاطره قول آخر لزهير بن أبي سلمى ، فأخذ يستعيد في ذاكرته قصيدته التي بدأها بقوله :

بان الخاليط ولم يأووا لمن تركوا وزودوك اشتياقاً أية سلكوا
ذلك لانه كان قد امضى اياماً محزون النفس ضيق الصدر منصرفاً عن الناس
بأساً مكدوداً . فقد كان يتوقع ضيقاً ، لا يعرف كيف يكون منه المخرج .
وغادر عبد الله مجلس عمران من غير أن ينبس بيت شفة أو يحرك لساناً ، مطرقاً في الارض مترنحاً ترنح الثمل النشوان .

ولم يمض على هذا الحديث بضعة أيام حتى أصبح عمران ذات يوم واذا بالاخبار ترى بان مقبولة بنت صالح قد أخذها المخاض ، وأنها وضعت اثناء الليل طفلاً ، بين جدران بيت أبيها ، وأن أباهما عني بامرهما واحضرها قابلة القرية بنفسه ، وأنه لم يأسف على شيء إلا على أنها ولدت سفاحاً ، ولو أنها ولدت من طريق شرعى لكان حبه لمولودها ذاك اضعاف حبه لمولودها هذا .

ولم يكد يسمع عمران بهذا حتى تواردت الصور على فكره وقلبه سراغاً متكاثرة . تخيل اليه ان خطيئة مقبولة سوف تحول بينها وبين عبد الله . ولكن ما يدريه لعل الخطيئة من فعل عبد الله نفسه . وبعد هنيئة ألقي عبد الله مقبلاً عليه ، ولما اقترب منه جثا على ركبتيه خشوعاً ، معترفاً بأنه السبب في جريمة مقبولة وأنهارتية من الاثم وأنه المخطئ لانه اغواها ومناها الامانى . فما زاد وجه عمران

« لا اضنراراً وقطوباً ، ثم اطلق ساعته ، مرت على عبد الله كأنها دهر ، ثم اعلن أنه عفى عن المجرم ، ونسى الجريمة ، على ان يكون هذا آخر عفو لى عمران التقي الورع ، بعبد الله المجرم الاثم .

— ٨ —

وعهد عمران الى الشيخ المعلم بأن يقوم بما يجب عليه نحو المرأة الساقطة والرجل المجرم ، فيصب عليهما من علمه قدر آمن الوعظ والارشاد ، يحمد ما يتأجج في صدريهما من نيران الشهوة والاتعمال .

فمضى ذات يوم الى بيت صالح ، واذا بمقبولة في الردهة ، فأخذ بيدها الى مصطبة على القرب منه وجلس اليها مقبلاً عليها مطيلاً النظر في ملامح وجهها ، واعتدال قامتها ، وقوة نظراتها ، وأخذ في الكلام الى أن تدرج الى النصيح والارشاد فقال لها :

« يا بنيتى ! لآى شىء خلق الله هذا الجمال الفتان ؟ ولماذا خصك الواحد القهار بهذا السحر المائل فى عينيك ، وهذا الدلال المنبعث من ملامح وجهك ؟ أمن أجل أن تبذليه رخيصة فى سوق الشهوة الآثمة ؟ ولعمري أى شىء يحول بينك وبين ارضاء شهواتك من طريق يرضى الله عنه والناس ؟ الله خلق الناس وخلق معهم شهواتهم وكل خصائصهم ، وهو بعد لم يحرم علينا أن نرضى شهواتنا مهما كان فيها من الاسفاف . ولكنه رسم لارضاء هذه الشهوات طريقاً ان انصرفنا عنه كسبنا سبة أهل الدنيا وعذاب الآخرة . واني لا أقول لك من شىء إلا أن الـ ويمليه على قلبى فيفيض به لسانى . واني قائل لك اليوم مقالة ان رضيت بها كسبت شرف الدنيا وأرضيت ما فىك من نزعات الشباب الغائرة . انى لا أرفض اليوم ، ابتغاء مرضاة الله تعالى والناس جميعاً ، وعلى الرغم من خطيئتك ، أن أتزوج منك فتصبحين لى حليمة لاخليلة ، وأنا رجل أحمل فى صدرى كلام الله وأعرف الحلال والحرام ، وقرأت تفسير الفرقان وشرفنى الله بأن جعلنى من علماء هذا الزمان الاعلام ، بعد أن قضيت فى الازهر العاصر خمسا وعشرين عاماً طوالا أحصل العلم وأتقنه فى الدين وأهذب نفسى بالتقوى ، وأتقف عقلى بالنحو وعلم الاصول ، حتى عرفت الدنيا كلها وقسمها عظيماً من حقائق الآخرة . »

كل هذا ومقبولة ترنو اليه بطرف ساحر ، وترسل اليه بنظرات تصبى الذين
لم تعرف الصباية الى قلوبهم بعد طريقاً . ثم امتشقت قامتها ، وابتعدت عنه تمشى
على استحياء هو الكيد بعينه ، ناظرة اليه بنصف عين ومنصرفه عنه بالنصف الآخر
عند حد قول بشار الضرير في أرجوزته

قامت ترأى اذ رأتني وحدي كالشمس تحت الزبرجد المتقد
صدت بنجد وجلت عن خد ثم انثنت كالنفس المرتد
فلم يتمالك المعلم الوقور ، مبعث نور العلم في قرية عمران ، التقى النقى الطاهر
العلم ، هن أن يمضي في أثرها إلى داخل الدار ، ليلم لها عفته المبرورة التي قطع
عليه تيارها سحر الميمون .

- ٩ -

في ظل دوحة على شاطئ النيل جلس عبد الله يناجي نفسه ويراجعها ذكريات
الماضي ، ويستمد منها الهداية في حاضره ، ويرجو من الله الخير في المستقبل
لقد غفر له سيده وأبوه عمران الخطيئة ونسيها . ولكن هل هذا كاف لأن
يذهب من ذهن عبد الله بكل ذكريات الماضي ؟ ذكر تلك السويمات الحلوة التي
كان يقضيها ومقبولة يتشاكيان الغرام والحب ، ويتساران عبارات الصباية والغرام
تحت جناح الليل في أطراف القرية أو على مقربة من شاطئ النهر المتلاطمة أمواجه
المنسابة مياحه انسياب أفكارها وأحلامهما في فلوات الخيال ؟
وهب أن في مقدور الانسان أن يغفر الخطيئة بنفسه فهل في استطاعه أن
يغفرها حقاً بقلبه ووجدانه ؟ وما فائدة الغفران حتى ولو كان صحيحاً أمام الواقع
في فتاة أصبحت من طريق الغواية أما ، وولد أصبح من طريق السفاح بلا مركز
في الحياة الاجتماعية ؟

وما ثبت في مخيلة عبد الله من شيء في تلك البرهة الا وعوده وعهوده التي
قطعها لمقبولة بان يصبح لها زوجا يحمل أحزانها وتحمل أحزانه . واذا كانت
الخطيئة كبيرة في نظر الله والناس ، أفليس نقض العهود إثم يغضب الآداب والشرائع ؟
وكيف تكون حال تلك الفتاة من بعده إن هو تركها في مهاب رياح الدنيا الأربعة
تتناوح من حولها بما فيها من احتقار الناس والسقوط إلى أحط الدركات الاجتماعية ؟

وما زالت تلج عليه هنيه الخطرات حتى استقوت على ما كان يحمل في قلبه
من احترام وحب لعمرائه ، فقام من فوره الى بيت صالح ليخبره بمقبولة
عمود الحب والوفاء .

— ١٠ —

مضى عبد الله وكأن هموم الدنيا كلها قد تناصرت عليه فناء بها كاهله .
مضى ميمما نحو القرية مطرقاً تائها زائغ البصر ، فاذا به في حقل يبعد عن القرية
مسيرة نصف ساعة ، ولم ينتبه الى ذلك حتى اصطدم بشجرة قائمة على جانب الطريق
عاد أدراجه ، حتى اذا بلغ بيت صالح ولج اليه فوجد ربه في فناءه ، فسألها
أين مقبولة ؟ غير أنها تلكأت في الجواب قليلاً ثم أخبرته أنها خارج الدار .
لكن إحدى شقيقتيها ، وعلى وجهها ابتسامة مريبة ، وفي حركة تدل على السخرية
والإزدراء ، حسداً لا كرهاً ، ذكرت أنها في الحجرة الداخلية نائمة !!!

ووقف عبد الله أمام الغرفة وطرق الباب ، فلم يسمع من حركة تدل على
وجود انسان . وظل يطرق الباب زماناً طال عليه أمده . ثم فتحت مقبولة الباب
فاذا بها في نصف ثيابها محمولة الشمر حمة الاضطراب . فسألها السبب فيما يرى .
فقالت أشمر بتعب ربما يكون مرضاً وكنت نائمة ، ولعل وطأة الحمى كانت سبباً
في أن أكون في غير حالي الطبيعية . ثم أدخلت عبد الله الى الحجرة وتركت
الباب نصف مغلق .

ولم يترك عبد الله لمقبولة من فرصة للتفكير في سبب هذه الزيارة ، بل عمد
الى الكلام من فوره ذا كراهاً أنه ثابت الحب صادق الوعد وفي بمعهده ، وأنه
سوف يتزوج منها عما قريب على الرغم من كل عمران في الارض والسماء ، وأنه
ليس بالرجل الخائن ولا الفاسق عند عهد الحب . وان الدنيا كلها في نظره لا تساوى
نظرة واحدة من سحر عينيها أو قبلة حارة يطعمها على جبينها الوضاء .

غير أن مقبولة كانت في شغل عن كل هذا . فظلت مطرقة الى الارض ما تحير
جواباً ولا تحرك لساناً . وكان في آخر الحجرة باب آخر يسلم الى غرفة مجاورة
اسدلت عليه قطعة من الخيش لتخجبه عن الا نظار . ولست تعلم سبباً في أن
قطعة الخيش قد سقطت فجأة وظهر ما وراءها فتجلى لمبنى عبد الله ، وما رأى

من شيء اللهم إلا الشيخ المعلم الوقور ، حامل العلم ومفسر آيات الله ، واقفاً
على الجسد أصفر الوجه ، مضطرب الأعصاب يهتز اهتزاز الرقاص ، وينتفض من
مفرق رأسه الى موطن قدميه

هنا عرف عبد الله الحقيقة كاملة ، وافتضحت أمام عينيه حقائق هذا الوجود
الإنساني ، وطارت كل أحلامه وآماله مع الاثير اللامتناهي ، وعرف أن الظواهر
وهم وخيال وانها لا تغني عن الحقيقة شيئاً . ولكن الى أين يذهب من وجه هذا
المجتمع ؟ ليس له من مذهب الا الى جوف ييم متلاطم الامواج يسمع أنحزانه .
ظل عبد الله ينظر نظرات زائفة حيرى ، ثم أدار ظهره اليهما ومخرج من
الغرفة متثاقلاً . ولكن الى أين ؟ الى شاطئ النيل حافظ أسرار جدوده الاولين
ليلقى الى جوفه ويين أسرارهم بذلك السر الاليم .

وهناك من فوق جرف عال يشرف على درر دور قوي التيار وقف عبد الله
يتأمل في السماء هنيئة ، وما هي الا لحظة واحدة أطبق بعدها النيل جفونه على
عبد الله ، ابن الخطيئة ، ومرتكب الخطيئة . قذف بنفسه بين لجة الدردور وعلى
شفتيه قولة « هاأنذا » ، وليس يعلم أحد أيقولها لاينه أم لربه ؟

— ١١ —

بعد بضعة أيام رجع الفواصون بجثة عبد الله الى القرية كأن ظلم الانسان لم
يشأ أن يقف عند حد ، فأخرج الجثة الهامدة من جوف البحر اللجى ، ليسجنها
في ثمانية أشبار من جوف الارض .

وفي الطرف الشرقى من القرية حيث كانت الطريق التي سوف تمر منها جثة
عبد الله محمولة على الاعناق تعالى صوت امرأة خرجت من خدرها منادية « أى
ولدى وحشاشة كبدي » . ثم سقطت على قارعة الطريق فاقدة الرشد هائلة الدموع
مات الولد وفضحت الام ، وأسدل على آخر امال عمران ستار من اليأس زاده
في الحياة زهدا وفي الناس مقتاً .

أليس في كل هذا أثر كبير من عسف الاقدار ؟

فهرست

صفحة

- ١٠١ تأملات في الادب والحياة : الفرق بين الشرق والغرب — معتقد داروين الدينيني الشخصية — كلمات لطاغور الشاعر الآلهي — الشمراء والناثرون — السببية والفائية في الفلسفة — الحظ في الحياة فيلوفونس
- ١١٢ : الشيعة في العراق
- ١١٣ فلسفة الانقلاب التركي الحديث المحرر
- ١٣٣ تاريخ النضال بين الدين والعلم عمر عنايت
- ١٣٨ فلسفة النسبية أو النسبية وما بعد الطبيعة المحرر
- ١٤٣ الخطرة النفسية وموضوع الذهن اصفهاني
- ١٤٩ عن ليالي الفريد دوموسيه للدعشان
- ١٥٠ الزولوجيا — أو مبادئ علم الحيوان المحرر
- ١٦٤ حرية الفكر ونشر الدعوة الحكومية — محاضرة للعلامة برترند رسل : تلخيص بقلم الاستاذ حسين محمود
- ١٧٥ جيرولاموسافونارولا — بطل الحرية والواجب في القرون الوسطى فيلوزوف
- ١٨٨ عسف الاقدار — قصة واقعية المحرر